
روايات مصرية للجيب
ما وراء الطبيعة
سلسلة الأعداد الخاصة
4
Looloo
د. أحمد خالد توفيق
www.dvd4arab.com
قصتان

مقدمة

لا .. لن تكون هناك ألعاب خبيثة هذه المرة .. لا متاهات ولا حروف تتقرر حسب الساعات ، ولا قصص تختار أنت أبطالها وأحداثها .

هذه المرة أقدم لك قصتين من قصصى أنا العجوز (رفعت إسماعيل) كما تعلم . نشرت هاتان القصتان على شبكة الإنترنت ، لكن بسبب بعض التعقيدات التقنية لم يقرأهما سوى عدد محدود من القراء ، وهو ما يطرح أسئلة عديدة عن المقارنة بين الكتاب المطبوع والنشر الإلكترونى . أحيانًا أعتقد أن المقال والقصة القصيرة هما النمط الوحيد المناسب للنشر على شبكة الإنترنت ، بينما الرواية الكاملة تحتاج إلى رائحة الحبر وملمس الورق ، والقدرة على أن تصحب الكتيب معك للفراش ، دعك من أن تضعه جوارك على مائدة الطعام .. إلخ . ومن الملفت للنظر أن للمؤلف مقالات عدة متباينة الجودة على شبكة الإنترنت لكن قراء كثيرين يصرون على أن تُطبع لأن القراءة بهذه الطريقة لا تروق لهم ، ولأن الإنترنت وسيط سريع البخر ... يمكننى أن أفهم هذا باعتبارى من الجيل القديم الذى لا يعرف كيف يفتح جهاز الكمبيوتر أصلاً . صورة الكمبيوتر فى ذهنى هى جهاز عملاق يشبه ثلاجات المحلات إلا أنه يضىء

ويطفئ أنوارًا عديدة ، وهناك أكثر من بكرة شريط تدور ، بينما يقف أمامه رجال بمعاطف بيضاء يدسون فيه البطاقات المثقبة ! لا أستطيع قبول فكرة أن تحمل هذا الجهاز المرعب فى حقيبة ..

كل كاتب فى العالم يرغب أن يصل ما كتبه إلى أكبر عدد من القراء ، وقد أحببت هاتين القصتين حقًا ؛ لذا رغبت فى أن أراهما مطبوعتين . وقد تفضل أصحاب الموقع بالسماح لى باستعمال ما نشرته هناك كما يروق لى ، وأخص بالشكر الأستاذ (كريم خورشيد) .

هنا تبرز مشكلة أن هاتين القصتين تنتميان للعالم القديم من ما وراء الطبيعة عندما كان حجم الرواية نحو 140 صفحة ، بينما تحولت الأعداد الأخيرة إلى كابوس متعدد الصفحات . لهذا قررت أن أفضل قناة للنشر هى سلسلة الأعداد الخاصة ، وأفضل صورة هى نشر قصتين معًا كما حدث مع الكتيب الأول من السلسلة عندما تم جمع (مصاص الدماء) و(الرجل الذئب) فى كتيب واحد ..

لقد أطلت الكلام ولكننى أردت أن أضعك فى الصورة قبل أن أبدأ ..

كما تعلم : من الصعب أن تبدأ من دون أن تشرح كل شىء قبل أن تبدأ ..

الآن يمكننى أن أبدأ ...

أسطورة القادم ليلاً

بقلم : د . أحمد خالد توفيق

مقدمة

أنا الدكتور (رفعت إسماعيل) طبيب أمراض الدم المتقاعد الثرثار ، الذى صدع رءوسكم على الورق بحكايات لا تنتهى .. واليوم هو يصدع رءوسكم على شبكة الإنترنت ..

لا أعرف حقًّا لكنى من طراز قديم جدًا .. كلاسى جدًا .. أؤمن أن ما تعلمته كاف حتى هذه اللحظة ، ولم يعد فى عقلى متسع لشىء جديد مثل تلك الصناديق البلاستيكية التى يسمونها (كمبيوتر) .. ما زلت أجد من الغريب أن يحفظ المرء أسراره وحساباته على شكل إلكترونات .. أو أسلوب (شحنة لا شحنة) المميز للغة الثنائية Binary .. شحنة قد تمحى فتمحى أسرارك أو تبقى فيطالعها آخرون ..

على كل حال ما طُلب منى بسيط .. أنا أحكى القصة ، وهناك أصدقاء سيحولون هذه الكلمات إلى شحنات تنتقل عبر الأسلاك فى الفضاء (السايبرى) ..

لا فارق عندى .. أنا إذن أحكى بالطريقة العتيقة .. لو كنت فى كهف لحكيت قصتى بالإشارة ، ولو كنت فى سوق (عكاظ) لحكيت قصتى بصوت جهورى ، ولو كنت فى شلة (بلزاك) الباريسية لحكيت قصتى كتابة بريشة أنيقة وأنا أضطجع على أريكة مغربية .. المهم أننى أحكى وأنتم تقرءون .. إن هى إلا بضع ساعات نقضيها معًا فدعونا نستمتع بها ، ودعونا لا نضيعها فى هذه التفاصيل الصغيرة ..

أعتقد أننى سأحكى الليلة أسطورة القادم ليلاً .. لماذا هى بالذات ؟.. لأنها تتحدث عن رجل قدم ليلاً .. حسبت هذا واضحًا .. إن القادمين ليلاً نادرون ، ودائمًا ما تكون ثمة أسباب وجيهة لقدومهم .. بعضها مثير .. وبعضها طريف .. وبعضها مرعب ..

هل خمنتم أسباب قدوم هذا القادم ليلاً ؟

1ـ آثار الحادث ..

هو ...

* * *

لا يوجد الكثير مما يقال هنا ..

لقد انتهى الانفجار ...

كان الدخان فى كل صوب ، ومن العسير أن ترى يدك ذاتها .. لو أردت أن تحك رأسك لجهلت الطريق إليه .. تلك الرائحة .. رائحة البارود ورائحة الشياط ورائحة الـ .. شواء ؟

نعم .. للأسف .. هناك أجساد محترقة وسط هذا الزحام .. حين ينقشع الدخان قليلاً ترى تلك الكتلة من الأجساد التى تحولت إلى عجين .. مشهد شنيع لهذا لن أصفه من فضلك ..

بعض قطع الخشب تحولت إلى شعلات صغيرة ، تلفظ أنفاسها .. لقد كانت هنا مأساة ، لكنها انتهت لحسن الحظ .. انتهت نهاية دامية ، لكنها انتهت .. ككل شىء أليم .. المريض الذى يعوى ألمًا وقد غرق فى دم وصديد ، ثم يأتى الموت ليداوى كل هذا فى لحظة ..

ينهض وهو لا يعرف حقيقة إن كان ينهض ..

كانت دوامات تجتاح رأسه فلا يعرف من هو .. ولا كيف تتحرك تلك الأعضاء الكثيرة الخارجة منه .. هناك يدان وقدمان .. هناك فم وأنف وأذنان .. كلها موجودة لكنه لا يملك أدنى فكرة عن كيفية التحكم فيها ..

أخيرًا عرف أن عليه أن يأمر ذراعه لتتجه إلى أنفه ..

حين عادت الكف كانت ملوثة بالدماء .. إنه فى حال سيئة حقًا ..

ثم ذلك الصداع !.. تبًا للصداع !.. هناك كرة معدنية تتأرجح داخل رأسه وتضرب جدران جمجمته من الداخل (بونج - بونج) .. يجب ألا يتحرك .. يجب ...

صوت صراخ :

- « تعالوا !.. هناك حى هنا ! »

ثم ذلك العويل المميز لسيارات الإسعاف ..

إنه يعرف أن هذه سيارة إسعاف .. يعرف أن المكان هو مخزن قديم .. كان كذلك لأن أكثره تهدم .. فيما عدا هذا لا يعرف شيئًا على الإطلاق ..

* * *

- « إلى بجهاز محلول وزجاجة من الدكستران ! »

- « لا يوجد يا دكتور .. »

- « إذن إلىّ بزجاجة محلول ملحى .. دكستروز .. زيت تموين .. أى شىء !... إننا نفقده !! »

كان راقدًا على المحفة ينظر للسقف المتسخ للمستشفى العام ، ويتساءل : لماذا يصرخ هذا الطبيب الشاب ؟ غالبًا هو معدوم الخبرة . هذا هو السبب الوحيد ، لأن صاحبنا لم يشعر قط بأنه يموت .. إن ذهنه صاف ووعيه هادئ .. لا يوجد ما يدعو إلى كل هذا الصراخ وهذه الهستيريا ..

يشعر بالإبرة تنغرس فى وريده .. ثم يشعر بالسائل البرد يتدفق ..

إن هذا المصباح فى السقف يطارده كأنه طبق طائر كابوسى يراقب الموقف .. خبرة مشاهدة العالم من أسفل .. بالضبط من القاع .. يقولون إن منظور (عين الطائر Bird's eye View) يجعلك ترى كل شىء ويشعرك بالتفوق ، فماذا عن أن ترى كل شىء من هذه الزاوية حيث كل شىء أكبر وأقوى منك ؟.. لابد أن هذا هو منظور (الحشرة) أو (النملة) .. يغمض عينيه ويحاول أن يهدأ ..

تتداخل الرؤى من جديد .. الإحساس بالزمن مختلط كأى شىء آخر ..

يسمع من يقول له :

ـ « هل تستطيع الإجابة ؟ »

ثم من يقول له :

ـ « هل تعرف ما حدث ؟ »

ومن يقول له :

ـ « من أنت ؟ »

لكنه بالفعل لا يعرف أى شىء عن هذه التفاصيل .. المفترض أن يعرف اسمه لكنه لا يعرفه .. والأهم أنه لا يشعر بقلق لذلك .. لماذا يجب أن يحمل كل واحد اسمًا ؟.. هذا لن يغير شيئًا .. الحشرة التى وجدتها فى الفناء الخلفى وأنت لا تعرف اسمها .. هى مثلك لا تعرف اسمها .. هل هذا يمنع أنها موجودة ؟..

يغمض عينه ويتجاهل الأصوات ..

صوت آخر يقول :

ـ « أعتقد يا (عماد) بك أنه فقد ذاكرته .. لن تتمكن من أخذ أقواله .. »

صوت آخر يقول :

ـ « هذا يحدث بعد الصدمة .. إنه تفاعل (ما بعد الارتجاج) .. أعتقد أنه سيسترد ذاكرته قريبًا .. »

ـ « نرجو هذا .. »

ثم يتنحنح الصوت بوقار ويملى شيئًا لواحد بجواره :

ـ « وكانت حالة المصاب لا تسمح باستجوابه ؛ لذا قررت النيابة تأجيل أخذ الأقوال إلى حين تحسن حالته .. »

* * *

حسن ..

هذا هو الوقت الذى يمكن للعجوز (رفعت إسماعيل) أن يظهر فيه ..

كنت فى تلك الفترة قد انتهيت من إحدى قصصى التى لا تنتهى .. من قرءوا منكم قصتى مع النحس والرقم المشئوم ، يمكن أن يعرفوا بالتقريب كيف كنت فى تلك الفترة ..

لقد عدت أمارس عملى ، وبدت لى حكاياتى السابقة بعيدة جدًا .. أحب حين أنهى فصلاً من حياتى أن أتخلص منه فلا أحمل معى شيئًا منه ..

ذهبت للمستشفى ذلك الصباح ، فجلست أولاً فى مكتبى أرشف الشاى وأطالع جريدة الصباح ..

كان هناك حادث انفجار مروع قد وقع فى مخزن قديم فى نفس المنطقة .. يبدو أن خمسة أشخاص قد لقوا حتفهم ، والصورة المنشورة غير واضحة لكنها توحى بإمكانات بشعة .. يبدو أنه انفجار أسطوانة غاز أو شىء من هذا القبيل .. اعتدت أن يكون الموت مدققًا أنيقًا يختار كل ضحية على حده ، لكن هذه الملحمة المجنونة من الأشلاء والبقايا شىء يفوق تحملى وفهمى للأمور ..

مرت عيناى على الخبر بسرعة ونسيت كل شىء عنه خلال ثانيتين ..

وبينما أنا أطالع تقريرًا عن توترات الهند وباكستان التى لا تنتهى أبدًا فى ذلك الزمن ، دخل د. (رأفت) صديقى العتيد الغرفة ، وجلس أمامى ..

قال لى :

ـ « كانت المستشفى فى هرج ومرج أمس .. لقد جلبوا ضحايا الحادث إلى هنا . »

رفعت رأسى ورشفت جرعة من الشاى قائلاً :

ـ « هل يوجد من يصلحون لدخول المستشفى ؟.. على قدر علمى لم ينج أحد .. »

ـ « لكن سيارة الإسعاف جلبت الجميع هنا .. على كل حال لم ينج إلا واحد .. »

ـ « لابد أنه تحول إلى عجين . »

ـ « ليس بالضبط .. »

وخرجنا من المكتب وبدأنا نمارس طقوس حياتنا اليومية .. كان هناك طن من المشاكل ، وقد قررت أننى سأقيم احتفالاً صغيرًا فى اللحظة التى يطلقون فيها سراحى ..

على أنه فى الواحدة بعد الظهر جاء من يخبرنى إنهم بحاجة إلىَّ فى قسم الطوارئ .. يبدو أن الأمر يتعلق بذلك الناجى الأخير .. وكان هذا أمرًا روتينيًا يتكرر من حين لآخر على كل حال .. فلأتنه بسرعة وأعود لدارى ..

اتجهت إلى هناك لاهثًا من جهد صعود الدرج طابق واحد طبعًا فوقفت أجفف عرقى وألتقط أنفاسى .. إن قسم الطوارئ أقرب إلى حلبة سباق خيول أو فقرة فى السيرك القومى .. لا بأس من أن تتلقى دفعة تلقيك أرضًا أو يضربك احدهم كوعًا يصيبك بنزف فى الرئة ..

جاء الطبيب الشاب المكلف بالطوارئ ، وهو من الطراز العصابى الذى يتلمس عويناته كل ربع دقيقة ، ولا يكف عن بعثرة الأوراق فى كل مكان .. صافحنى بيد باردة ، وقال :

ـ « نرجو ألا نرهقك .. هذا المصاب جاءنا أمس فى حادث الـ .. »

قلت فى ملل :

ـ « نعم . نعم .. انفجار أسطوانة غاز .. إلخ .. اختصر يا بنى .. »

ـ « إنه يعانى حالة فقر دم متقدمة .. هذا .. »

وأوقع عشرات الأوراق ، وهو يبحث عن ورقة بعينها .. حتى شعرت بأن العصاب يتسرب إلى أنا نفسى .. أريد أن أهشم رأسًا أو رأسين ..

ـ « لحظة .. هو ذا .. لا .. انتظر .. هو هنا .. »

ثم صاح فى ممرضة عصابية بدورها يطلب صورة الدم .. فانطلقت تبحث عنها ، فقط ليتذكر أنها الصورة فى جيبه .. أخيرًا أخرج ورقة مكرمشة كأن كلباً كان يلوكها وناولنى إياها ..

الهيموجلوبين Hemoglobin وهو صبغ الدم الحيوى لا يتجاوز ثلاثة جرامات .. هذا رقم مخيف بدون أية تفاصيل طبية أخرى ..

قلت له فى صبر :

ـ « أولاً لنتفق على شيء .. أنا أشك بشدة فى هذا الرقم .. لابد أن صاحبه قد توفى منذ ساعة .. »

ـ « قمنا بإجراء التحليل ذاته مرتين .. »

ـ « ثانيًا لا أعرف سبب دهشتك لأن جريحًا فقد دمًا .. على قدر علمى كل الجروح تنزف دمًا .. هذه هى خلاصة الخبرة التى كونتها بعد كل هذه الأعوام فى ممارسة الطب »

اتسعت عيناه رعبًا من وراء عويناته التى تكبر العينين أصلاً وصاح :

ـ « لكنه لم ينزف يا سيدى ..!.. لا يوجد جرح واحد فى جسده .. إنه سليم كالجرس ! »

* * *

2ـ لغز طبى سهل ..

هـو القادم ليلاً ..

* * *

فتح عينين محمرتين ونظر لى ..

قلت له فى صبر :

ـ « هل تعرف من أنت ؟ »

إنها تلك النظرة الخاوية الغبية الزجاجية .. أعرفها وأفهمها .. ليست لدى هذا الشاب أدنى فكرة عن ذاته .. من الصعب أن تتعامل مع شخص لا يعرف من هو ، لكن ليست هذه أعقد مشكلة أواجهها فى حياتى ..

كان وسيمًا برغم حالتـه السيئة لـه ملامح دقيقـة أقرب إلـى الشفافية .. هذه الوجوه الحساسة التى تدل على ذكاء عظيم حتى وإن كانت عيناه خاويتين مظلمتين .. أعتقد أنه فـى الثلاثين من العمر ..

أما الأهم ، فهو أن هذا ليس وجه رجل يعانى من فقر دم إلـى هذا الحد المريع ..

قلت للطبيب الشاب :

ـ « إنه ملوث بالدماء .. »

ـ « ليس هذا دمه بل دم الآخرين .. لقد حسبناه جريحًا فى البدء .. »

ـ « حتى لو افترضنا أن رقمك صحيح ، ففقر الدم يحدث لحشد من الأسباب .. ربما هى عملية تكسير واسعة النطاق لكريات دمه الحمراء .. ربما توقف نخاعه العظمى عن العمل .. لا ينبغى أن يكون النزف هو السبب .. »

قال فى توتر وهو ينظر لشخص ما لا وجود له :

ـ « حينما نجد شخصًا مصابًا فى حادث ، يخطر لنا أول شىء أنه ... »

انحنيت على المصاب وتفحصته بدقة .. لا يوجد شىء مريب فيه .. أعتقد أنه يحتاج إلى مزيد من الفحوص المعملية كى نحكم على سبب فقر الدم .. لو كانوا يعتقدون أننى سأفعل مثل (أوسلر Osler) وأتشمم الهواء ، ثم أعلن التشخيص الصحيح فهم مخطئون ..

سألت الفتى بصوت هادئ :

ـ « أنا أدعى (رفعت إسماعيل) .. طلبونى كى أعنى بفقر الدم الذى تعانيه .. هل تذكر ما حدث ؟ »

بلل شفته السفلى بلعابه ، وقال بصوت كالفحيح :

ـ « لا أذكر .. وجدت نفسى وسط جثث ودخان .. كان هذا مريعًا .. »

ـ « ولماذا ذهبت إلى هناك ؟ »

ـ « لا أعرف .. »

قال الطبيب الشاب وهو ينقل ساقًا بدل ساق :

ـ « إنه يعانى (ما بعد الارتجاج) .. يعتقدون أنه سيتذكر كل شىء خلال أيام .. »

كان متوترًا بالطبع لأن طنًا من الأعمال ينتظره ، ولا وقت يضيعه أكثر مع مريض واحد .. مشكلتى هى أننى لا ألقى إلا أشخاصًا أكثر منى انشغالاً فى كل مكان ، حتى لأشعر بالخجل من نفسى .. لهذا أمسكت بتذكرة المريض وشرعت أدون رأيى فى الموضوع طالبًا حشدًا من فحوص المختبر ..

قلت له وأنا أغادر المكان :

ـ « بمجرد انتهاء الفحوص اطلبونى ولسوف نعيد تقييم الموقف ، لكن لا يوجد سبب يمنعك من إبقاء هذا الرجل حيًا إلى ذلك الحين .. هذا المريض يحتاج إلى نقل دم عاجل .. »

ـ « نحاول ترتيب هذا .. »

هكذا أنهيت عمل هذا اليوم ، ورحت أحلم بالعودة لدارى فالنوم ..

* * *

الليل يعم المستشفى ..

لا يوجد ظلام بالمعنى الحقيقى للكلمة ، لكن هناك الكثير من السكون .. من الأضواء الخافتة .. همسة من ممرضة لأخرى .. أنين مريض .. عواء قط تسلل من مكان ما لا يوحى أبدًا بأنه قط فعلاً ...

وفى الظلام يرقد ذلك الشاب الذى عجزنا حتى اللحظة عن معرفة اسمه .. يرمق السقف ..

أحيانًا ينظر إلى الفراش المجاور ، حيث يغفو مريض آخر أسوأ منه حالاً .. لكنه يحسده بشدة .. برغم كل الألم والمعاناة والخراطيم الخارجة والداخلة منه وإليه ، فإن هذا البائس يعرف من هو .. حتى لو مات فهو يعرف اسمه .. يعرف أنه (إبراهيم) أو (شفيق) أو .. وأنه قد مات ... هناك أرضية يقف عليها قبل أن يرتفع للسماء ، أما هو فلا يعرف شيئًا على الإطلاق .. فيما عدا افتقاره إلى الكينونة بالكامل ، فإنه فى حالة صحية ممتازة ..

ترى هل يسترجع شيئًا ؟.. لا يعرف ..

ثمة ذلك التشوش الذهنى الذى تعرفه حين تصحو من النوم على رنين الهاتف أو جرس الباب .. شعور لحظى مزعج يزول سريعًا ، لكن المشكلة هنا أنه دائم ..

رباه !.. يشعر بالاختناق !.. يريد أن يزيح هذا الغطاء الثقيل عن نفسه فلا يقدر ..

يقول الأطباء إنه سيعرف الحقيقة خلال أيام .. هل يستطيع الانتظار ؟

سمع صوت خطوات فنظر إلى مدخل العنبر ..

إنها الممرضة اللطيفة على الأرجح .. فتاة سمراء جذابة لاتكف عن الابتسام ، وكانت نوبتجية الليل تريحه بشكل خاص لأنها الفتاة تأتى من عالمها الساحر لتسأله عن حاله ثم ترحل ..

لكن لا ..

هذه الخطوات أثقل بالتأكيد من خطوات فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها تنتعل حذاء مطاطيًا ...

نظر بعناية أكثر إلى مدخل العنبر ..

فى البدء تصور أن هذا خداع بصر .. الظلال تجيد هذا الطراز القذر من الألعاب .. وهو لا يعرف من هو ، لكنه لم ينس خبرات الفيزياء التى عرفها ..

هذا الخيال الطويل .. الطويل جدًا حتى ليوشك على لمس سقف العنبر ، يرتمى أمامه ظل طويل جدًا تضاعف عدة مرات . لو كان الضوء قادرًا على تفسير الظل فكيف يفسر مصدر الظل ..؟

والرأس !

لا يوجد رأس لهذا الشىء .. إن الكتفين ينتهيان فجأة ... ولا يعلوهما شىء ..!

هب فى الفراش ونظر من حوله .. كل المرضى فى غيبوبة لايرون ما يراه هو .. وقد احتبس الصراخ فى حلقه فلم يخرج أى صوت ..

يقترب القادم أكثر .. أكثر ..

لكنه ما زال مغمورًا فى الظلال ..

بصوت غريب كأنما هو هلوسة سمعية لا وجود لها يقول :

ـ « أنت لى .. لا تنس هذا .. »

لم يكن هناك داع للتلفت ولا البحث عمن يوجه له هذا الكلام .. إنه يخاطبك أنت .. هذا واضح .. وهذا الصوت لا يمت لهذا العالم .. كل شىء فيه لا يمت لهذا العالم ..

ـ « أنا أنتظرك .. من قبضة القادم ليلاً لا أحد يفر .. »

ثم يتراجع الظل للوراء وهو يردد :

ـ « لا أحد .. لا أحد .. »

بعد دقيقة توارى تمامًا ..

لدقائق ظل صاحبنا فى ذات الوضع الثابت .. وضع من يوشك على الوثب من الفراش .. العرق يغمره وصرخة مكتومة تحاول الفرار من بين شفتيه لكنها لا تستطيع ..

ما معنى هذا ؟.. ما هذا المسخ الذى جاء ؟.. وهل يعرفه ؟.. من الواضح أنه يعرفه ..

كانت هذه هى الزيارة الأولى للقادم ليلاً ..

لماذا أصفها بالأولى ؟.. لأنها تكررت فى الليلة التالية بنفس التفاصيل .. لم يضف كلمة واحدة اخرى ، ولم يختصر كلمة .. كأنه شريط سينمائى يعاد عرضه ..

ومن جديد تتكرر الأسئلة : من هذا القادم ليلاً ؟.. لماذا جاء ؟..

والسؤال الأخطر : ربما هذه هلاوس .. ربما أنا قد أصبت بالخبال ..

* * *

فيما بعد عرفت أن الفتى لم ينتظر أكثر ..

لن يبقى هنا دقيقة أخرى ، ولن ينتظر زيارة رهيبة تالية ...

لقد أصابه ذعر حيوانى غريب يسهل فهمه .. وعلى الفور وثب من الفراش ، وكان يلبس ذات الثياب التى وجدوه بها .. لا تنس أن هذا مستشفى مجانى لا يملك زيًا يلبسه للمرضى ..

وجد خفين تحت فراش المريض الذى يلاصقه ، فاستعارهما أو سرقهما .. وسرعان ما كان يخرج من العنبر مترنحًا ..

تمنى ألا يقابله أحد .. لا من الممرضات ولا من القادمين ليلاً .. لحسن حظه أنها الرابعة بعد منتصف الليل ، حيث يغط الجميع فى النوم ..

راح يتحسس طريقه عبر ممرات كئيبة المنظر (كافكاوية) الطابع ، تتوارى منه القطط المتسللة ، وتتغنى الجدران بصوت خطواته ..

هناك درج نزل فيه .. وهناك ممر طويل مظلم له رائحة المطهرات الخانقة ..

ثم هناك حديقة واسعة غير معتنى بها ، تغنى فيها صراصير الحقل .. هناك بوابة حديدية ورجلا أمن نائمان يلتفان بالأغطية .. هما لن يفيقا إلا لدى سماع صوت سيارة الإسعاف .. لا يمكن أن يفيقا لسماع قدميه ..

وأخيرًا فى هذه الساعة المبكرة من صباح الغد وجد نفسه فى الشارع ...

ربما شعر بتحسن وربما لم يشعر ..

لكن كانت تنتظره مشكلة عويصة ، هى مشكلة البحث عن مأوى ..

بعد هذا يأتى البحث الأصعب : البحث عن ذاته ..

* * *

3ـ بحث غير مجد ..

هـو القادم ليلاً حين يغفو الجميع ...

* * *

ظلام الدرج ..

صوت الخطوات ، ورائحة عطن .. تلك القطط السوداء الكريهة تتواثب هنا وهناك وقد منعها القادم الجديد من الانتهاء من أحشاء الدجاجة الذى ألقاه أحدهم ..

صبرًا ولا تتعجل .. إن هذا الدرج ينذر بكارثة ، ولو تعثرت فى هذا الظلام لكسرت جمجمتك ..

قطة تكره أن تتخلى عن الشلو الذى تلتهمه ، فترجع أذنيها للوراء كما تفعل المقاتلات الحديثة بجناحيها طلبًا للسرعة ، ويتحول وجهها إلى وجه عفريت ، وتصدر ذلك الفحيح الثعبانى الطويل المنذر بالويل .. قطة أخرى تصدر ذلك الصوت الطويل المولول الذى يصفه العامة بالـ (تعويض) ...

أحيانًا يخيل إليه أن النسبة الكبرى من تعداد القاهرة هى من القطط الضالة .. هو لم ير أكثر منها منذ عاد لعالمنا بعد ذلك الحادث ..

الآن عليه أن يجد المفتاح ..

يجب أن نقول إن فقدان ذاكرته لم يكن كاملاً .. ثمة رؤى تظهر وتتلاشى كأنها البرق يضىء الدغل ثم يتوارى .. وكان ضمن ما رآه ذلك الشارع .. ذلك الزقاق .. هذه الدرجات .. هذا الباب الذى يعرف يقينًا أن مفتاحه قريب ..

لو كان يحمله معه عندما وقع الحادث فمن المؤكد أنه فقده .. من الواضح أن جيوبه كانت خاوية تمامًا وإلا لوجد رجال النيابة معه بطاقة هوية .. أى نوع من الهوية ..

المفتاح قريب لكن أين ؟

كان الآن يقف وحده فى سطح مظلم .. هناك غسيل معلق على حبل .. غسيل لا يوحى بالثراء ، وهناك كومة من أكياس القمامة المهلهلة التى عبثت بها القطط عبثًا .. أمامه الباب الخشبى الذى تم طلاؤه بطلاء رخيص ، والذى لا يوحى بأية جودة فى الصنع .. ربما لو دفعه بكتفه لتهشم .. لكنه يخشى أن يفعل .. ربما كانت رؤاه خاطئة بعد كل شىء .. ربما لم يكن يسكن هنا ..

المفتاح !.. المفتاح !

هناك مفتاح .. لكن أين هو ؟

اتجه إلى سور السطح وراح يمرر أنامله على القرميد المتآكل .. ثمة ضوء خافت فى ذاته يخبره أنه على الطريق الصحيح .. شخص ما فى مكان ما فعل هذا الشىء أكثر من مرة .. الشعور الغامض يخبره بأنه هو ذات الشخص ...

أه !.. هاهو ذا !.. يده تصطدم بالجسم المعدنى ..

يخرجها ليجد أن هذا هو المفتاح .. وبقدر ما سره أنه وجد الحل لقضاء ليلته ، بقدر ما أسعده معرفة أن الفيلم الموجود فى جمجمته لم يحترق بالكامل .. ما زالت هناك مشاهد كاملة سليمة ..

يدير المفتاح فى القفل ...

يدخل ...

* * *

أى وكر قذر هذا !

صحيح أن مشهد البناية والدرج لا يوحيان بأنه يدخل فندقًا خماسى النجوم ، لكنه توقع أن تكون الأمور أفضل بالداخل .. الواقع أن الداخل كان يعبر بدقة عن الخارج ولا يوجد أى تناقض ..

ثمة مصباح كهربى صغير معلق من السقف يضاء بمفتاح فى نفس السلك .. ضغط عليه فانطلق ضوء خافت كئيب يغمر الغرفة الضيقة ..

هناك فراش بلا (ملة) تقريبًا .. عليه أغطية متسخة فقيرة ، وهناك منضدة يبدو أنها تصلح لكل شىء .. منضدة طعام ومكتب وكومود و(بوفيه) ومسند أقدام وسلم لتبديل المصباح .. الأرض مكسوة بقطعة من (الموهير) الرخيص الذى له ألف لون ..

ثمة جهاز مذياع عتيق من الطراز الذى يربطون حجارته الجافة إليه بالحبال .. وهناك جرائد مفتوحة يبدو أن طعامًا كان يوضع فيها ..

لكنه لم يبال بهذه التفاصيل .. صحيح أنه تمنى لو كانت حياته أكثر يسرًا ، إلا أن مشكلته الآن كانت تفتيش هذه الغرفة بعناية .. لو كانت تخصه فهى بالتأكيد تحوى بعض أسراره ..

تحت الحشية وجد بعض المال .. إن خمسين جنيهًا فى تلك الزمن لا تقل أهمية عن خمسمائة جنيه اليوم .. ربما تتجاوزها .. هذا كشف مهم ..

لا توجد أوراق هوية .. هناك صورة فوتوغرافية باهتة معلقة على الجدار بلا إطار .. هو لم ير وجهه لكنه لم يفقد تلك الحاسة التى نطلق عليها (معرفة الذات) أو (التماهى) .. لهذا لديه فكرة لا بأس بها عن ملامحه .. هذه صورته منذ أعوام لا شك فى هذا ..

هناك كتابان ... الأول يتكلم عن (دولة المماليك البحرية) والآخر يتكلم عن (النظرية النسبية) .. ما معنى هذا ؟.. ما الخيط الجامع بين الاثنين وما هى اهتماماته بالضبط ؟.. هل هو عالم ذرى من المماليك ؟.. أم هو معلم تاريخ يهتم بالعلوم ؟.. أم ..؟

ما عمله ؟.. هل هو متزوج ؟.. هل هو فرد من أسرة .. واضح تمامًا أن هذا مسكن رجل واحد .. ربما نصف رجل لو أمكن ...

انتهى التفتيش فلم يجد شيئًا ، وقدر أنه قد يعرف أكثر فى الصباح ..

سوف يظهر الجيران ويهتف أحدهم : (سمير) .. أين كنت ؟ .. أو تهتف واحدة : قلقنا عليك يا (منصور) .. أو يدق الباب محصل الكهرباء حاملاً إيصالاً للسيد (محمد المنياوى) أو السيد (سامح مكرم) .. المهم أنه سيعرف كل شىء فى الصباح ..

كم الساعة الآن ؟.. لا يعرف .. كان يعرفها بدقة فى المستشفى من مواعيد توزيع الدواء ، أما الآن فهو يعرف فقط أنه فى وقت ما بين الرابعة صباحًا والنهار الصريح ...

عليه أن ينام .. وغدًا يوم آخر ..

هناك منامة واضح أنها تخصه .. هكذا استبدل بثيابه الغارقة بالدم وآثار الحادث ثياب النوم ، ولم يدر متى ولا كيف نام ..

* * *

4- من أنا ؟

هو القادم ليلاً حين يغفو الجميع .. وحين يهلك آخر شعاع ضوء ..

* * *

فى الصباح سمع قرعات على الباب ..

لعل هذا هو ما ينتظره بالضبط .. اتجه للباب وفتحه وهو مبلبل الأفكار ..

فتاة حسناء . هو رآها حسناء .. ليست من أرقى طبقة ممكنة ولعلها تنتمى بالفعل لهذا المكان .. كانت تحمل صحفة عليها بعض الطعام .. طبق فول وبضعة أرغفة من الخبز .. بعض أقراص الفلافل ..

ضحكت فى بشاشة حين رأته .. سمراء من الطراز الذى يسمونه (مليحة) ..

- « إفطارك يا (بدر) .. أين كنت أمس ؟ »

ونظرت حولها لتتأكد من أحداً لا يراها .. إذن أنت (بدر) .. هذا جميل .. وليتك تقدر على انتزاع معلومات أخرى ..

تناول منها الصحفة وقال مرتبكاً :

- « كنت مع صديق .. شكرًا .. »

- « هل زرت (فهمى السلامونى) ؟.. ذلك المحامى فى (السبتية) ؟.. توقعت هذا .. »

ونظرت للوراء وهمست :

- « ستظهر أمى فى أية لحظة . لن أطيل الحديث ! »

ثم وقفت ترمقه وهو يضع الصحفة على المنضدة .. إعجاب لا يخفى على أحد فى عينيها .. إنها تحبه بجنون .. والأهم أنه يشعر بفخر لهذا ..

من الواضح أن هذا الإفطار مهرب دون علم ذويها .. ساكن السطح العزب الذى تعنى به جارة شابة لأنها تحبه .. لم ينس الأفلام العربية على كل حال ..

قالت له وهى تواصل التلفت :

- « بالهناء والشفاء .. أتمنى أن يأتى اليوم الذى أكف فيه عن التسلل .. أتمنى أن أصارح أمى بالحقيقة .. »

ثم استدارت وهى تلقى كلمتها الأخيرة :

- « سأقول لها بوضوح إنك زوجى أمام الله ورسوله .. لا أحد يجرؤ على الاعتراض ! »

* * *

جلس يعبث فى طبق الفول عبثًا كأنه يعبث فى أفكاره ذاتها .. لم يلحظ أن ربع ساعة مر وهو مستمر فى تقليب الفول بالزيت دون أن يرفع اللقمة لفمه ..

إذن هو متزوج ..!.. والأهم أنه متزوج سرًا ..!.. ولكن لماذا ؟ ...

لو استطاع للحق بها وحكى كل شىء .. ثم يسألها السؤال الأهم : من أنا بالتحديد ؟... لكنها لن تصدق .. ستصاب بالهلع ولن تعطيه معلومة واحدة كاملة ..

أخيرًا رفع اللقمة إلى فمه وازدرد ما بها .. طعم الفول سيئ فعلاً .. لا يعرف السبب لكن هذه الفتاة ليست أفضل طاهية فى الكون .. هذا لو كان هذا الفول يطهى ..

كان هناك موقد صغير فى الحجرة ، من الطراز الذى يعمل بالكيروسين ؛ لذا بحث حتى وجد عود ثقاب ، وأشعل الموقد .. ملأ براد الشاى وأعد لنفسه بعضه .. حتى الشاى سيئ المذاق لا يروق له .. لكنه أفضل من الطعام على كل حال ..

ارتدى الثياب التى وجدها هناك .. ثم نزل من داره ..

فقدان ذاكرة غريب النوع هذا الذى يمر به .. إنه يذكر أرقام الحافلات ويعرف بالضبط كيف يصل إلى وجهته .. فقط هناك بقعة سوداء تحيط بكل ما يخص كينونته ..

سوف يذهب إلى (السبتية) .. إلى ذلك المحامى الذى عرف اسمه .. لن يكون الأمر صعبًا ..

هناك يعرف المزيد عن ذاته ...

كان يعبر الشارع الذى هو أقرب إلى زقاق ضيق .. تنتثر فيه ورش الحرفيين ، ويلعب فيه الصبية بكرة ممزقة .. لقد ابتعد عن البيت كثيرًا ...

هنا سمع من يستوقفه صائحًا :

ـ « أين أنت ؟.. لم تأت أمس كما قلت لى .. »

التفت للوراء ليرى شابًا فى العقد الثالث من العمر ، له ذقن نصف نامية ، ومظهر فظ يوحى بأنه من معتادى المتاعب ..

الشاب يواصل الكلام :

ـ « حددت لى موعدًا خلف المدرسة القديمة ، وقلت إن الشىء معك .. ذهبت هناك وانتظرتك ساعة أو أكثر ، ثم قررت أنك تتلاعب بى .. إنه ليس معك .. أليس كذلك ؟ »

بم يرد ؟ ... طبعًا الشىء ـ يعلم الله ما هو ـ ليس معه .. لكن هل يفلت من هذه المحادثة ؟

قال بصوت مبحوح :

ـ « نعم ليس معى .. لكنى سأرتب لك الموضوع .. الليلة .. ربما .. »

قال الشاب وعيناه تنذران بالخطر :

ـ « أنت تعرفنى .. لا أحد يخدعنى .. لماذا حاولت أن تتلاعب بى ؟ »

ـ « لم أتلاعب .. ظننت أننى قادر على تدبيره .. أنت تعرف هذه الأمور .. »

نظر له الشاب بريبة ، وقال وهو يعتصر ذراعه :

ـ « ما بك ؟.. لا تبدو (على بعضك) اليوم .. هل أنت مريض ؟ »

ـ « ربما .. ربما .. »

هز الشاب رأسه ، وقال وهو يتأهب للرحيل :

ـ « (كمال) .. أنت تعرف أننى لا أمزح ولا أحد يلعب بى .. قليلون حاولوا ولم يجدوا الوقت الكافى للندم .. »

ـ « سأتذكر هذا .. »

وانصرف الشاب ، بينما عاد هو إلى حالة انعدام الوزن التى مر بها من قبل .. (كمال) أم (بدر) ؟.. متزوج ويلتقى رجالاً مريبين ليلاً ليعطيهم (أشياء) .. لا تحتاج إلى خيال خصب كى

تقدر أن هذه الأشياء ضد القانون .. مخدرات على الأرجح ... من هو بالضبط ؟

واضح أنه لغز حقيقى .. يقول (إيليا أبو ماضى) فى (الطلاسم) :

أنا لغز .. ومجيئى كذهابى طلسم

هو لا يعرف بيت الشعر لكنه يعبر عن حاله بدقة ..

هكذا اتجه إلى (السبتية) قاصدًا مكتب المحامى ...

* * *

ـ « أستاذ (محمود) ؟. إن الأستاذ يسأل عنك منذ الصبح ! »

قالها لها كاتب المحامى العجوز الجالس خلف المكتب المتداعى المغطى بالملفات .. وأردف الرجل وهو ينهض متجهًا إلى دهليز ضيق فى المكتب :

ـ « سوف يكون معك حالاً .. قهوة أم شاى ؟ »

غمغم صاحبنا بكلمات من طراز (قهاى) أو (شاهوة) .. لم يسمعها الرجل على الأرجح ..

ماذا يدور هنا ؟.. من أنت بالضبط ؟

كان فى أسوأ حال ممكن حين جاء المشروب الذى اتضح أنه (قهاى) فعلاً من مذاقه . وحتى استدعى لمقابلة المحامى (فهمى السلامونى) ..

قال له الأستاذ ، وهو رجل ممتلئ فى منتصف العمر له صلعة لامعة :

ـ « الإجراءات تسير جيدًا . ما لم يتدخل (جابر) بألعوبة أخرى .. أحيانًا أحس أن الأمر لعبة شطرنج معقدة بين عقلى محاميين بارعين ، وأرى أن عليك دفع جزء آخر من الأتعاب الآن ! »

فكر قليلاً فى شىء يقال .. ثم غمغم فى شرود :

ـ « جميل .. جميل .. لكن ليس معى مال حالاً .. »

ـ « لقد انتهينا لتونا من بيع الفدان .. فلا تقل إنك أنفقت المبلغ كله .. »

فكر بعض الحين .. فدان .. إذن لماذا يعيش فى ذلك البيت الحقير ؟.. هل لهذا الفدان علاقة بـ (جابر) ؟

لعبة شطرنج معقدة بين محاميين ؟ ... إنه موشك على الاختناق ..

قال بصعوبة :

ـ « الحقيقة أننى مرتبك ولا أعرف كيف أبدأ .. أريد مهلة أخرى .. »

قال المحامى نافد الصبر :

ـ « يجب أن تسرع قليلاً .. إن مدام (عزة) تلعب لعبتها بسرعة .. هى لا تقضى أيامًا فى التفكير مثلك ، ولا تغيب عشرة أيام عن محاميها كما تفعل أنت معى .. »

ثم ضيق عينيه ونظر إليه فى خطورة ، وقال ضاغطًا على كلماته :

ـ « هم لا يمزحون .. يعرفون جيدًا ما يريدون ويحققونه ... أما أنت فتتأرجح بين الحزم والوداعة .. بين البلاهة والخبث .. بين الإقدام والتردد .. »

ثم كوم أوراقه فوق بعضها ، وقال :

ـ « أرى أن تتصل بى غدًا على أقصى تقدير .. سأوجه لهم ضربة قانونية شديدة الإيلام فقط لو شعرت بأنك تعضدنى .. لن أتصرف وحدى كما تعلم .. »

كان فى هذا إيذانًا بانتهاء المحادثة ..

ونهض مترنحًا واتجه إلى الباب ..

هز رأسه محييًا الكاتب ، وبدأ يهبط فى الدرج .. الشارع من جديد ..

يريد أن ينفرد بنفسه .. يريد أن يعرف معنى هذا الذى يسمعه .. يرمق الناس فى شرود ..

ـ « بس س س !.. (محمود) ! »

نظر وراءه بحثًا عن صاحبة الصوت فلم ير أحدًا ، ثم أدرك أن الصوت يخرج من سيارة (فيات) زرقاء تقف بقربه .. ثمة امرأة .. امرأة تطل برأسها من نافذة السائق وعلى عينيها نظارة سوداء ، تتظاهر عن طريقها بغموض وأرستقراطية .. ليس بسيارة كهذه يا سيدتى ..

وشعر برضا شديد لأن هذه المرة الأولى التى يسمع فيها الاسم ذاته مرتين .. هذا يدعم جبهة (محمود) كثيرًا .. هكذا ترجح كفة (محمود) على كفة (بدر ـ كمال) ...

عبر الطريق فى حذر . وانحنى جوار النافذة ..

امرأة فى الثلاثين .. تتظاهر بأنها شقراء وبأنها راقية وثرية ..

قالت له من وراء العوينات السوداء :

ـ « هل ثمة ما يشغلك ؟.. اركب .. توقعت أن أقابلك فى مكتب المحامى أو قربه .. »

دار وفتح الباب الأيمن ، وجلس فى تخاذل وإنهاك .. وشم رائحة عطر خانقة .. عامة من اللحظة الأولى أعطته المرأة انطباعًا من الافتعال والادعاء لم يحبه .. أما هى فانطلقت بالسيارة عبر الشوارع المزدحمة ، وكانت قيادتها جيدة إلى حد ما .. لاحظ أنه فى ذلك الزمن كان من العسير أو المستحيل أن ترى امرأة تقود سيارة ..

قالت له بعد صمت طال :

ـ « (محمود) .. أعرف أنك غاضب .. لكننى أعرف كذلك أننى سامحتك .. »

ثم مدت يدها تضبط مرآة الرؤية الخلفية ، وقالت :

ـ « أنت تعرف أننا زوجان متحابان .. ولن تفرقنا هذه الألاعيب القانونية ! »

* * *

5- إنه هو ..

هو القادم ليلاً حين يغفو الجميع .. وحين يهلك آخر شعاع ضوء .. عندئذ ترتج الردهات بصوت خطواته ..

* * *

الظلام يبدو أكثر كآبة حين تواجهه وحدك فى غرفة خافتة الإضاءة ، على سطح بيت متداع ..

هو يجلس ويرمق المصباح المتدلى من أعلى .. ويفكر ..

المشكلة هى أن عقله مبلبل لا يقدر على التفكير الممنطق المرتب ، فلا يخطر بباله أن يرتب الاحتمالات على الورق أو يصل بين هذه المعطيات ..

قال الأطباء إن الارتجاج سيشفى ، وسوف تعود ذاكرته .. لا يبدو أن هذا يحدث .. بل إن الأمور تزداد جهامة وتعقيدًا .. فى كل لحظة يكتشف من حياته جانبًا لم يعرفه من قبل ، فلو اتضح أنه يطير أو أنه زعيم لوردات المخدرات فى (كولومبيا) ، أو قابله رجل من المخابرات السوفييتية ليسأله عن شحنة (البلوتونيوم) ، فلن يندهش كثيرًا ..

- « أنا زوجتك .. لن تنسى هذا ببساطة .. أعرف أنها مغامرة تورطت فيها بسبب تهورك ، لكنى أعرف كذلك أننا قادران على نسيانها .. »

قالتها له وهى تقود السيارة وهو صامت كالقبر ..

قالت له كذلك :

- « لن أطلب منك ردًا الآن .. سوف أنتظر حتى الغد .. »

ثم تذكرت شيئًا فأخرجت ورقة من حقيبتها بيدها اليمنى ، بينما عينها على الطريق ويدها اليسرى على المقود :

- « هذا هو رقم هاتفى الجديد .. أنت لا تعرفه فقد تغير .. اطلبنى فى أى وقت وأبلغنى قرارك .. »

هذا جميل .. كان يرغب فى إبقاء همزة الوصل ، لكنه يخشى أن يسألها .. المفترض أنه يعرف كل شىء عنها ..

ثم استدارت لترمقه بنظرة جانبية طويلة من خلف العوينات السوداء ، وقالت :

- « أنت لا ترى نفسك .. لقد صرت فى حال مروعة مثيرة للشفقة .. يا لياقة قميصك !.. منذ متى لم تستبدل ثيابك ؟.. هل حلقت لحيتك منذ ثلاثة أيام ؟... تبدو لى كالمجاذيب فلا ينقصك إلا أن تحمل مبخرة وتجول على المحلات تستجدى أصحابها .. »

ثم توقفت على يمين الطريق ، وبدا أنها تنتظر ..

نظر لها فى غباء ، فقالت بلهجة نافدة الصبر :

ـ « الجريدة .. إنها عند المنعطف التالى ، ولن أستطيع دخول الشارع المزدحم .. حسبتك ذاهبًا إلى هناك .. »

قال بلهجة من اكتشف شيئًا مهمًا :

ـ « نعم .. نعم .. شكرًا .. كدت أنسى . »

وما لم يقله لها هو إنها أبعدته كثيرًا جدًا عن الدار التى يعيش فيها ، فعلت هذا تطوعًا ودون أن يطلبه منها .. وهو بالطبع لا يملك أدنى فكرة عن كنه هذه الجريدة ..

هناك جريدة هنا يعمل فيها (محمود) أو له علاقة بها .. سيتذكر هذا ..

هو الآن فى غرفته يفكر فى ربط كل شىء من جديد .. لكنه يتوقف ..

هو يعرف يقينًا أن الباب مغلق ، فلماذا هو مفتوح الآن ؟

من صاحب الظل الذى يقف هناك ؟.. لقد تذكر !.. إنه هو .. لقد وجده كالعادة .. هو إذن ليس مرتبطًا بالمستشفى ..

يقترب القادم أكثر .. أكثر ..

لكنه ما زال مغمورًا فى الظلال ..

بصوت غريب كأنما هو هلوسة سمعية لا وجود لها يقول :

ـ « أنت لى .. لا تنس هذا .. أنا أنتظرك .. من قبضة القادم ليلاً لا أحد يفر .. »

ثم يتراجع الظل للوراء ، وهو يردد :

ـ « لا أحد .. لا أحد .. »

بعد دقيقة توارى تمامًا ..

هذه المرة لم يبال بالخجل . لم يبال بأسئلة غريبة توجه له ، لأنه ما من أحد يوجه له أسئلة كهذه ..

لقد غطى وجهه وراح يصرخ ..

يصرخ ....

* * *

لم يعد النوم ممكنًا ..

هكذا حكى لى فيما بعد ؛ لذا قرر أن يفتح المذياع العتيق ويصغى إلى أى شىء ينسيه هواجسه ..

حينما فتح المذياع سمع صوت رجل على شىء من الوقار كذا قال يتكلم مع مذيع شاب متحمس .. يبدو أنه برنامج إذاعى ليلى ، ويبدو أن فكرته قائمة على تلقى مكالمات المستمعين .. لكن الغرض هو سماع قصة مرعبة يحاول هذا الرجل الوقور أن يدلى بدلوه فيها ..

سمع المذيع يقول :

ـ « د . (رفعت إسماعيل) .. أستاذ أمراض الدم بكلية الطب جامعة ... هو ضيفنا الدائم هنا ، ونحن جميعًا نعرف خبراته فى مجال ما وراء الطبيعة .. »

والرجل يقول :

ـ « لا أعتقد أن أحدًا يملك إجابات حول هذا الموضوع .. أنا فقط سمعت أسئلة أكثر من غيرى .. »

هذا الصوت !.. إنه يعرفه بالتأكيد .. والاسم !..

* * *

ـ« أنا أدعى (رفعت إسماعيل) .. طلبونى كى أعنى بفقر الدم الذى تعانيه .. هل تذكر ما حدث ؟ »

* * *

يا لها من مصادفة !.. هذا الرجل كان طبيبه فى المستشفى ، والآن يتضح أن له خلفية عن أسرار عالم ما وراء الطبيعة .. لاتوجد خيارات كثيرة .. لابد من أن يتصل بهذا الرجل غدًا ..

أين يجده ؟.. الأمر سهل .. أستاذ أمراض دم بكلية طب (...) .. وهو يعمل فى ذات المستشفى الذى كان فيه ..

سيجده غدًا ... هذا أكيد ..

* * *

6ـ ساعدنى يا دكتور..

هـو القادم ليلاً حين يغفو الجميع .. وحين يهلك آخر شعاع ضوء .. عندئذ ترتج الردهات بصوت خطواته .. إنه قـادم نحوك أنت ..

* * *

ـ « د. (رفعت إسماعيل) ؟ »

بالفعل لم يجد عسرًا فى العثور على مكتبى .. بل إنه ذهب إلى قسم الطوارئ ليسأل برغم إنه من الناحية القانونية يعتبر فارًا من المستشفى .. لكن ما عرفه على الفور هو أنه لا أحـد يلاحظ أى شىء فى هذا المكان .. ولا أحد يذكر أى واحد آخر ..

رفعت عينى وبدا لـى الوجه مألوفـا ... هاتـان العينـان وهـذه الملامح الذكية ..

ابتسم وقال :

ـ « لابـد أنـك تـذكرنى .. المريض الـذى قمت بمناظرته مـن يومين .. »

هنا تذكرته على الفور ، ودعوته للجلوس .. طبعًا لم يتصل بى أحد ولم يبلغنى بتقارير المختبر .. هذا متوقع فليس على إلا أن أبحث عن النتائج بنفسى لو كنت متحمسًا إلى هذا الحد ...

ـ « هل تذكرت اسمك ؟ »

ـ « تذكرته .. » ـ وابتسم بغموض ـ « ربما أكثر من اللازم .. »

لم أفهم هذا الجزء لكنى قدرت أنه سيفسر أكثر .. عاد يسـألنى فى شك :

ـ « هل أنت صاحب البرنامج الإذاعى الذى ...؟ »

ـ « نعم . أنا هو .. وقد بدأت أفهم أن استشارتك لى لن تكون طبية .. »

ـ « هى خليط من كل شىء ... »

وجلس وحكى لى ما عرفتموه أنتم مـن قبل .. سـأترككم قليـلا حتى أسمع دون تدخل منكم حتى لا أكون انطباعات مسبقة .. أفضـل أن أسمع القصة من فمه هو ..

* * *

لما انتهى من قصته تثاءبت .. لا عن ملل ولكن عن إحباط .. لا أملك له حلولاً جاهزة على الإطلاق ..

قلت له :

ـ « هناك مشكلتان فى حياتك .. أولاً من أنت وماذا تعمل بالضبط ، وكيف وجدت نفسك فى الانفجار ؟.. ثانيًا من هو ذلك القادم ليلاً ؟ »

ثم أمسكت بورقة ورحت أخط عليها بعض المعلومات :

ـ « لنكن منطقيين .. أعتقد أن القصة كما يلى : أنت صحفى يدعى (محمود) ... متزوج ممن تدعى (عزة) .. ربما موسر كذلك لأن لديك فدادين تبيعها .. لابد أنك قمت بإحدى المغامرات التى يقوم بها الصحفيون .. انتحلت اسمًا مزيفًا هو (بدر) وأقمت فى حى شعبى ، وتورطت مع أشخاص مريبين .. أعتقد كذلك أنك تورطت فى الزواج من تلك السمراء الحسناء .. قررت أن تحصل على الطلاق أو شىء من هذا القبيل عن طريق (فهمى) المحامى .. بينما زوجتك الأولى وكلت من يدعى (جابر) .. ثم .. بوم !.. يحدث الانفجار الذى لا نعرف شيئًا عن سببه .. وجدت نفسك فى هذا الوضع تحاول تذكر من أنت حقًا .. »

نظر إلى قدح القهوة الذى طلبته له .. أعتقد أن قهوتنا لم ترق له لأنه لم يمسه .. فكر قليلاً ولم يبد راضيًا .. وقال وهو يحك ذقنه :

ـ « قصة معقدة أكثر من اللازم .. مصادفات عديدة .. ثم لماذا ناداني ذلك المشبوه باسم (كمال) ؟.. المفترض أن سكان الحى عرفونى باسم (بدر) .. »

كومت الورقة وألقيتها فى القمامة ، وقلت مغتاظًا :

ـ « هذا هو ما استطعت استنتاجه .. لو كنت تبحث عن قصة متناسقة دراميًا فعليك بالذهاب إلى (نجيب محفوظ) أو (محمود تيمور) .. »

عاد يتساءل :

ـ « ومن هو القادم ليلاً ؟ »

ـ « أعتقد أنك فى حالة تسمح بالهلاوس السمعية والبصرية .. لاحظ أنه لم يمسسك بضر .. هكذا تفعل الهلاوس .. »

بدت عليه خيبة أمل لا شك فيها .. هذه مشكلتى الدائمة : كطبيب يتوقعون أن أرى المريض فأصيح : هذه حالة من داء (جلتسمر هركليان) بلا شك .. وعلاجها كذا وكذا ... ، وكخبير ميتافيزيقى يتوقعون أن أصيح : هذه لعنة إزتيكية قديمة أعرفها .. وطريقة علاجها هى كذا وكذا ..

المشكلة هى أننى أكثر ذكاء مما يوحى به مظهرى ، لكنى أقل ذكاء مما توحى به كلماتى ...

قال لى :

ـ « وماذا ترى أن أفعله الآن ؟ »

ـ « نفس ما فعلته أمس .. ابق حيًا وقطعة واحدة .. أعدك أننى سأواصل البحث .. فقط أعتقد أنه من الحكمة أن تخبر زوجتك الأولى (عزة) بما حدث لك .. هذا سيوفر لك الكثير .. ربما هى تعرف أكثر عن سبب تواجدك هناك .. »

أعطيته رقم هاتف بيتى وعنوانى فى حالة ما إذا احتاج إلى شىء .. وبعد انصرافه بقليل أدرت قرص الهاتف ..

طلبت قسم الطوارئ طالبًا نتائج الاختبارات التى أجروها عليه حين كان فى المستشفى .. بدا الضيق على الطبيب الشاب ، فقد أغلق هذا الملف ومن المستحيل أن يجد ما أريد وسط كل هذه الأوراق .. لكنه كان يعرف أننى قادر على الحصول على ما أريد عن طريق الاتصال برؤسائه ..

أما الشىء الثانى فهو أننى فتحت الدرج الذى أتخلص فيه من الصحف .. عامة ألقى بالصحف فيه حتى يصير غير قابل للغلق ، عندئذ أحمل معى كومة منها ؛ لأنها تصلح دومًا للف الخبز فيها ..

أرجو أن تكون الجريدة موجودة .. هاهى ذى .. حمدًا لله ..

فتحت صفحة الحوادث وراحت عيناى تطالعان الخبر بدقة أكثر ...

انفجار أنبوب غاز يقتل خمسة شبان

كتب (....) : فقد خمسة شبان حياتهم إثر انفجار أسطوانة غاز فى (....) . وقع الحادث فى منتصف الليل حيث أبلغ الجيران عن سماعهم صوت انفجار من مخزن مهجورًا كان يستعمل كمعمل للتخليل . وقد انتقل إلى مكان الحادث رجال الشرطة ورجال المطافئ ، حيث تبين أن الانفجار قد دمر المخزن تمامًا ، وعثر على خمس جثث لشبان فى العشرينات من عمرهم ، كما وجد شخصًا واحدًا سليمًا . ولم يستطع رجال النيابة استجوابه لأن حالته لا تسمح ، إلا أن المعاينة المبدئية ترجح انفجار أنبوب غاز فى المخزن . وتواصل النيابة التحرى عن سبب إحضار الشبان أنبوب غاز معهم فى هذا المخزن ، والكيفية التى انفجرت بها .

بصرف النظر عن نصب نائب الفاعل (شخصًا) وبالتالى صفاته ، ونصب صفة مكسورة (مهجورًا) ، فهذا شىء يمارسه الجميع .. ويبدو أن الناس جميعًا يعتقدون أن نصب الكلمات يجعلها تبدو أدق نحويًا ..

هذا هو كل شىء وهو لا يختلف كثيرًا عما قاله الفتى ، لكن هناك شيئًا مهمًا هو أنه لا يعرف أى شىء عن سبب تواجده ورفاقه هناك .

قمت بطلب رقم على الهاتف .. بعد قليل جاء صوت صديقى د. (عبد الغفار) .. وهو من الأشخاص الذين اتصل بهم مرة كل

عامين لأجل مصلحة ما .. علاقة بسيطة جدًا قوامها المنفعة من طرف واحد ..

ـ « (رفعت) أيها العجوز .. لم تمت بعد .. »

ـ « طبعًا وإلا لوجدت جثتى عندكم .. »

أنتم تعرفون أن د . (عبد الغفار) يشغل منصبًا مهمًا فى الطب الشرعى .. هذا يجعله لا يتكلم على راحته لأن هذه أسرار عمل ، لكنى بالفعل كنت أريد معرفة تفاصيل أكثر عن الحادث ..

قال لى فى تحفظ :

ـ « هذا كلام لا يقال عبر الهاتف .. لماذا لا تأتى لى فى المصلحة لنواصل الكلام ؟.. لكن دعنى أخبرك بشيئين : أنت لن تطلع على جثث ولن ترى ملفات .. اتفقنا ؟ »

ـ « هذا مفهوم .. »

ـ « هناك لغز حقيقى يحيط بهذه القضية ، وهذا سبب عدم تسلم أهل الضحايا جثث ذويهم .. »

ثم قال ، وهو يضع السماعة :

ـ « لن أقول أكثر .. لكنى فعلاً بحاجة إلى رأيك .. »

* * *

7ـ ماذا رآه ؟

هو القادم ليلاً حين يغفو الجميع .. وحين يهلك آخر شعاع ضوء .. عندئذ ترتج الردهات بصوت خطواته ..

* * *

فرغت من شرب القهوة التى طلبها لى د . (عبد الغفار) .. كان رجلاً رسميًا جدًا غارقًا فى عالم الأحراز والشمع الأحمر والمظاريف الحكومية الصفراء الكئيبة .. مهنته تجعله أقرب إلى وكيل النيابة منه إلى الطبيب ..

قال لى وهو يتفحص أحد الملفات :

ـ « هناك خمس جثث فى مكان الانفجار .. الصفة التشريحية هى .. هل تريد التفاصيل ؟ »

قلت فى تهذيب :

ـ « لو كانت لا تتمشى مع حدوث انفجار . »

ـ « لا .. كلها تتفق مع الانفجار .. الشباب كلهم فى سن متقاربة ومعهم أوراق هوية ، وقد تعرفناهم جميعًا .. يبدو أن رجال الشرطة يحاصرون ذويهم بالأسئلة .. أرجح النظريات هى

أنهم كانوا يعبثون أو يجربون تجربة غامضة ما ، لكن أسطوانة الغاز انفجرت فيهم .. أسطوانات الغاز هذه الأيام لا تفعل شيئًا سوى الانفجار .. إنها طوربيدات لو أردت رأيى .. »

ثم أشار لى بقلمه ، وقال :

ـ « ذلك الفتى الذى كان فى مستشفاكم والذى هرب ، كان يشكل نقطة مهمة جدًا .. أعتقد أنه كان يملك إجابات لكنكم تركتموه يفر من أيديكم .. »

ـ « إن الإهمال يحدث .. »

وابتلعت ريقى .. من الآن بدأت أشعر بالمسئولية القانونية الجسيمة التى يشكلها صمتى .. أنا لا أعرف مسكن هذا الفتى ، لكن من الممكن جدًا أن أبلغ الشرطة بكل ما قال .. هم سيجدونه .. هناك (فهمى السلامونى) المحامى وهو اسم لم أنسه ويصلح نقطة للبدء .. لكن من جهة أخرى هل من حقى أن أفضح ما قاله لى ؟.. لست محاميًا ولا طبيبًا بمعنى أنه سألنى بصفتى الطبية ولا قس اعترافات .. لا يوجد ما يمنعنى من إبلاغ ما قاله للشرطة ، وهذه نقطة يمكن أن توجه ضدى فى ساحة أية محكمة فيما بعد ..

على كل حال قررت أن أصغى لد . (رمزى) تاركًا هذه التساؤلات الأخلاقية لما بعد ..

قال لى :

ـ « لقد تمزقت الجثث .. هناك أشلاء ... لكننا تمكننا من جمعها .. تصور أنك تجمع قطع لغز من ألغاز الأطفال التى يسمونها Jigsaw .. انتهيت من جمع الصور كلها .. لكن هناك أجزاء زائدة لا تعرف ما تفعل بها ! »

تصلبت فى جلستى ونظرت له غير فاهم .. قال :

ـ « نعم .. هو ما سمعته .. هناك بقايا شخص سابع .. بقايا ممزقة .. بقايا لا يمكن أن يكون الانفجار قد سببها .. هل تريد أكثر ؟.. هناك بقايا من كتاب محترق بالإنجليزية يتحدث عن سحر القرون الوسطى .. هناك بعض الرموز الدينية وجدناها وسط الرماد .. »

اقشعر جلدى لهول الفكرة ، وعدت أسأله :

ـ « بقايا لم يسببها الانفجار ؟ »

ابتسم فى توحش وقد أدرك أنه أثار اهتمامى :

ـ « نعم .. بقايا من شخص تم تمزيقه قبل ذلك .. هؤلاء الفتية كانوا مجتمعين لممارسة السحر الأسود أو طرد روح شريرة .. هذا هو التفسير الوحيد .. ثم أفلت منهم الأمر وانفجرت أسطوانة الغاز .. »

ابتلعت الخبر مع ما بقى فى قدح القهوة ، وسألته :

ـ « وأهل هؤلاء الفتية ؟.. لم يعرفوا شيئًا عن ذلك ؟ »

ـ « كلهم فتية طبيعيون حديثو التخرج .. منهم المهندس والمحاسب والطبيب والمعلم .. وآخر ما يهتمون به هو هذا الهراء .. إنهم أصدقاء حميمون منذ زمن .. لكن هناك واحدًا اختفى من هذه الشلة منذ أسابيع .. قبل الحادث .. هذا هو كل شىء .. »

رحت أفكر فيما قال باهتمام .. بعد قليل سألته :

ـ « هذا الفتى المختفى .. كيف يبدو ؟ »

ـ « لا أعرف .. الشرطة تعرف بالتأكيد .. »

لو كان هو الفتى الذى جاء مكتبى لاتضح الأمر .. لا .. لن يتضح .. سوف يزداد تعقيدًا ..

شكرته ونهضت معلنًا رغبتى فى الانصراف ، فقال لى ضاغطًا على كلماته :

ـ « (رفعت) .. أنا قدرت صداقتنا .. لكن الصحافة لا تعرف حرفًا عن هذه التفاصيل .. ما قلته لك سيظل سرًا .. »

هززت رأسى أن نعم .. لابد أن يقول هذا ولا ألومه كثيرًا ...

المزيد من علامات الاستفهام .. لماذا لا يستعيد ذلك المخبول ذاكرته بسرعة وينهى هذا الغموض ؟..

« فقدان ذاكرة هستيرى .. »

خطر لى هذا المصطلح .. لم يكن الانفجار هو سبب فقد الذاكرة ، بل هو فقد ذاكرته لأن ما رآه مريع .. هذا يحدث كثيرًا جدًا .. الشاب يرى مصرع صديقه تحت عجلات القطار فيفقد ذاكرته .. المرأة تكتشف خيانة زوجها فتفقد ذاكرتها .. إن هذا هو خط الدفاع الذى يلجأ له المخ كى لا يجن ...

ماذا رآه ذلك الفتى حتى جعله ينسى تمامًا من هو ؟

ربما استطعت أن أساعده فى ذلك ...

* * *

يقترب القادم أكثر .. أكثر ..

لكنه ما زال مغمورًا فى الظلال ..

بصوت غريب كأنما هو هلوسة سمعية لا وجود لها يقول :

ـ « أنت لى .. لا تنس هذا .. أنا أنتظرك .. من قبضة القادم ليلاً لا أحد يفر .. »

ثم يتراجع الظل للوراء ، وهو يردد :

ـ « لا أحد .. لا أحد .. »

بعد دقيقة توارى تمامًا ..

وجلس الفتى فى الفراش الرث ينظر إلى فرجة الباب حيث اختفى الظل ..

(رفعت) الأحمق قال إن هذه هلاوس سمعية وبصرية .. ليته كان هنا ليخبر ذلك القادم برأيه ..

لكن هناك حقيقة مؤكدة : هو لن يتحمل أكثر من هذا .. المشكلة أنه لا فرار من ذلك .. لقد وجده ذلك الزائر فى المستشفى ، ووجده هنا .. فأين الفرار ؟..

* * *

فى الصباح جاءت (مها) وانصرفت..

(مها) هو اسم الفتاة المليحة التى يعرف الآن أنها زوجته .. بالطبع لم يكن على استعداد للمس إصبع من أصابعها ؛ لأنه ببساطة لا يعرفها على الإطلاق .. وقد بدت اليوم مندهشة .. لابد أنه فى حالته الطبيعية كان أكثر تحررًا ، حتى وإن كانت زيجتهما سرية .. أما هذا التعامل الرسمى الذى يصلح لابنة الجيران ، فأمر لا تفهمه ..

على كل حال تركت له الإفطار وانصرفت .. أمس تركت له عشاء .. من الجلى أنها تهرب من الوجبات الثلاث ما أمكن ، لا الوجبات كلها ..

أية حياة هذه ؟.. متزوج لكنه لا يجسر على لمس زوجته ، ويأكل ما تسرقه من مطبخ أمها كأنه متسول .. وكيف تقبل الفتاة بوضع كهذا ؟

لا شك فى أنها تهيم به حبًا .. لكن أية خطط كان يرسمها قبل هذا ؟.. ما هى تصوراته للمستقبل ؟.. ما المشكلة فى أن يعلن أنه متزوج من اثنتين ..؟.. فى هذا الوقت لم تكن تعديلات قانون الأحوال الشخصية قد خرجت للوجود ، وهكذا كان بوسعه أن يتزوجها دون أن تعرف زوجته الأولى بأى شىء .. فلماذا كل إجراءات المحاماة المعقدة إذن ؟

الحقيقة أنه كان يؤمن فى كل لحظة بأنه لغز مبهم ..

على كل حال تبلَّغ بلقمتين ثم نزل ..

لا أثر لذلك الرجل الخطر الذى يدعوه (كمال) لحسن الحظ .. وخطر له أنه على الأرجح لا يعرف بيتـه .. هذا منطقى وإلا لعرف أنه (بدر) ..

حملته قدماه والمواصلات إلى النقطة التى تركته عندها المرأة منذ يومين ...

قالت إن هناك جريدة .. وهو راغب بحق فى أن يرى من فيها ..

دار حول المنعطف .. بحث بعينيه عن مبنى عملاق يماثل مبنى (الأهرام) أو (أخبار اليوم) ، لكن ظنه خاب .. لا توجد أية مبان عملاقة هنا .. الشارع مزدحم وهو يصطدم بالمارة لكنه رفع عينيه لأعلى وراح ينظر إلى الشرفات .. هنـاك لافتـة (نيون) متسخة كتب عليها (جريدة الفلاح الفصيح) تبرز من شرفة فى الطـابق الثانى .. لا يوجد ما يدل على جريدة أخرى فى الشارع ..

محبط جدًا هذا المدخل المتسخ الرطب .. هى إذن جريدة من التـى تباع بالوزن لتجار الورق .. ربما تتكسَّب من الإعلانات أو الإتـاوات .. عنوانها يوحى بالانقباض والتشاؤم ..

دخل الباب المنخفض ليجد صالة استقبال .. غرفـة استقبال .. (كشك) استقبال .. رائحة الورق .. أكوام من الورق وحبر الطباعة ، وكومة من الصحف التى لا تباع بالواحدة ولكن بالكيلوجرام ..

ثمة سكرتيرة شاحبة تجلس وأمامها كومة من شطائر الفول وهاتف وآلة كاتبة .. فلما رأته صاحت :

ـ « كنا نبحث عنك يا أستاذ (عصام) !.. أين أنت ؟ »

تماسك حتى لا يسقط أرضًا .. إن الأمر يزداد تعقيدًا من لحظة لأخرى .. الحقيقة أنه يمقت نفسه بجنون .. لماذا من بين البشر جميعًا اختار لنفسه هذه الشخصية الغامضة المعقدة ؟

قال لها كلامًا لا معنى له ، فقالت وكأنها تفهم :

ـ « أعرف .. هو كذلك متضايق منك .. »

وأشارت بطرف خفى إلى غرفة داخلية ، وأضافت :

ـ « قال إن كلمة واحدة لن تنشر لك طالما هو حى .. »

يبدو أنه مثير للمتاعب كذلك ..

ثم أضافت الفتاة وهى تبتسم فى حياء :

ـ « أمس أخبرت أمى بقصتنا .. بما قلتـه لى .. وسوف تأتى قريبًا لتلقاك ! »

يا للكارثة !..

واضح أنه ألعن زير نساء على وجه الأرض .. يتمنى لو قابل فتاة واحدة لم يغازلها أو يطلب الزواج منها أو يبثها حبه ..

قالت له برقة :

- « هل تريد أن تلقاه ؟ »

من هو ؟.. طبعًا رئيس التحرير أو شىء من هذا القبيل ..

المشكلة هنا أن كل من يعرف وجهًا آخر من وجوهه يعرف طرفًا عن الوجه الآخر .. الفتاة التى هى زوجته الثانية تعرف عن مكتب المحامى ، لكنها تناديه (بدر) بينما المحامى يناديه (محمود) .. زوجته القديمة (عزة) تعرف أنه يعمل فى هذه الجريدة .. لكنه لا يستخدم الاسم ذاته .. بل تعرف مكتب المحامى .. الرجل المريب إياه قال إن اسمه (كمال) بينما من السهل أن يعرف أنه (بدر) ..

قال لها محاولاً ألا ينزلق فى فخ ما :

- « لا أرغب فى لقائه اليوم .. أ ... قولى لى .. »

أصعب شىء فى العالم أن تعرف من أنت دون أن يظن الناس بعقلك الظنون .. لهذا لابد من انتقاء كلماتك بعناية .. وخبث ..

- « متى كانت آخر مرة جئت فيها هنا ؟.. لقد نسيت .. »

بدت عليها الحسرة ، وقالت :

- « كان هذا يوم أخبرتنى بحبك .. إنه الأربعاء منذ ستة أيام .. كيف تنساه ؟ »

* * *

« لابد أنك قمت بإحدى المغامرات التى يقوم بها الصحفيون .. انتحلت اسمًا مزيفًا هو (بدر) وأقمت فى حى شعبى ، وتورطت مع أشخاص مريبين .. »

* * *

لم يرد وواصل الأسئلة :

- « وذلك التحقيق الصحفى الذى أجريه .. هل أخذت نسخة منه ؟ »

بدا عليها الغباء ، وقالت :

- « أنت تعرف أنك لم تجر تحقيقًا من أربعة أشهر ... هذا هو سبب الشجار بينكما .. لم يعد يسند لك عملاً جديًا .. أنا لا أعرف عما تتكلم .. »

هذه نقطة واضحة إذن .. من الصعب أن يبدأ هذا التحقيق العجيب دون علم رئيس التحرير .. وعلى الأرجح دون علمها هى ...

إذن سياق القصة لا يسير كما تخيله العجوز (رفعت إسماعيل) ..

* * *

8- سبعة ..

هو القادم ليلاً حين يغفو الجميع .. وحين يهلك آخر شعاع ضوء ..

* * *

قال لى الأستاذ (فتحى) وهو يحك أنفه كعادته كلما تكلم :

- « نعم .. أعترف أن القلق يعتصر قلوبنا .. لكننا على الأقل نملك بصيصًا من الأمل فى أن نراه مرة أخرى .. هذا أفضل بمراحل من أصدقائه الذين عرف أهلهم الحقيقة .. »

ثم تدارك وقال كأنما هو يفكر بصوت مسموع :

- « أم أن أهل هؤلاء أفضل حالاً منا ؟!.. لا أعرف بالضبط .. »

كنت أصغى له بينما الشفقة تعتمل فى نفسى .. سوف يتصلون به قريبًا .. سوف يخبرونه ..

لو لم يطلب منى د . (عبد الغفار) أن ألتزم الصمت لصارحته وانتهى الأمر ..

أشلاء الشخص السابع فى مكان الانفجار هى أشلاء ابنه (ياسر) .. فحص البصمات يؤكد هذا .. إن بصماته لدى الشرطة منذ اختفائه .. يبدو أنهم حصلوا على كوب أو أداة كان يستعملها

ورفعوا البصمات من عليها ، وهم الآن على يقين تام بأن الشخص السابع هو (ياسر) بالذات .. أما الجزء المهم فى الموضوع فهو أنه لم يمت لحظة الانفجار .. لقد مات قبلها بكثير ..

شعرت بحاستى أن مفتاح اللغز يكمن فى هذا الشخص السابع .. بالنسبة للستة الآخرين تبدو القصة متجانسة مترابطة .. الموت أو الإصابة بانفجار .. هذا من حقهم .. لكن ماذا يفعل السابع الذى لم يمت بانفجار وسط هؤلاء ؟

طبعًا لا داعى لذكر أنى رأيت صور (ياسر) وتأكدت يقينًا من أنه ليس ذلك الشاب فاقد الذاكرة ..

هكذا قررت أن أزور هذا البيت المنكوب .. حصلت على العنوان من د. (عبد الغفار) الذى حصل عليه من رجال المباحث ، وقد أوصانى عدة مرات أن أتعامل بكياسة ولا أفشى ما يعتبر حتى اللحظة سرًا من أسرار العمل .. قال لى فى غل :

- « سوف تقودنى إلى خراب بيتى !.. تبًا لك ! »

قلت له إننى لن أتكلم .. فقط سألعب دور زائر جاء يطمئن على أخبار ابنهم لأنه صديق ابنه .. كان يعرف أننى قد أكون أحمق أخرق سيئ الحظ متعنتا غبيًا سخيفًا عصبيًا .. لكنى بعد هذا كله شخص يمكن الثقة به !

هكذا ظللت صامتًا أتحمل أعنف أنواع التعذيب التى يمارسها علـى هذا الأب المسكين .. كلما ردد كلمات الأمل فى عودة ابنه ..

كان الفتى محاسبًا لم يعمل بعد ... زهـرة يانعة فـى مقتبل العمر امتلأ بالأحلام .. يقيم مع أسرته طبعًا لأنه لم يمتلك دخله الخـاص بعد ..

اندمج الأب فى الكلام عن ابنه .. ثم سألنى بغتة :

ـ « هل علاقة ابنك بابنى حميمة ؟ »

آه !... فلنشغل جهاز الكذب المثبت فى داخلى .. ليعمل بأقصى طاقة فيه ..

ـ « أعتقد هذا .. إن ابنى خارج البلاد الآن .. و ... »

نهض وعاد لى بألبوم صور فوتوغرافية .. وقال فى نشوة :

ـ « سوف نجد صورته هنا حتمًا .. »

أدركت أن هذا الألبوم تسليته الوحيدة .. وقررت أن أشـاهده بحثًا عن صورة ابنى الذى هو صديق (ياسر) الحميم .. سـوف أبحث عن مناسبة أسأل فيها عن آخر مرة شوهد فيها ابنه ومـع من خرج آخر مرة ...

راح يقلب الصور .. أطفال فى مدرسة .. مراهقون فى مدرسـة .. صف من الشباب يقف ضاحكًا بينما الصف الخلفى يرفع أصابعه ليرسم آذانًا للصف الأمامى .. الهراء المعتاد ..

أخرج الأب صورة تمثل مجموعة شباب يقفون على شاطئ ما ، وقال :

ـ « هذه هى الشلة .. قلما افترق هؤلاء منذ الصف الثـالث الإعدادى .. هل تعرفهم ؟.. هذا هو (ياسر) .. ثم (نـادر) و(معتز) و(محمد) .. هذا البدين هو (محسن) .. ثم هذا هو (جلال) .. فليرحمهم الله جميعًا .. »

كانت عيناى تبحثان فى لهفة بين الوجوه عن وجه ذلك الفتـى الذى زارنى فى مكتبى ..

لا . ليس بينهم .. ليس من الشلة على الإطلاق ..

قلبت الصفحة فوقعت عيناى على ضالتى ..

هذا هو (ياسر) يقف مع ذلك الشاب بعينه .. وهناك مـن يخطف شيئًا من واحد آخر .. مزاح الشباب إياه الذى لا يخلو من غلظة ..

سألت الأب مشيرًا للصورة :

ـ « من هذا ؟ »

ثبت عويناته جيدًا ، ثم قال بثقة :

ـ « هذا (شاكر) ... ليس من الشلة لكنه فتى لا بأس به .. »

ـ « هل زاركم هنا ؟ »

ـ « أحيانًا .. وكان (ياسر) يخرج معه .. كل هذه الأسئلة وجهها لى رجال الشرطة من قبل ، لكن لا أعتقد أن للفتى علاقة بأى شىء .. »

قلت له وأنا أنهض :

ـ « هلا أعرتنى هذه الصورة ؟ ... ثق بأننى سأعيدها لك فى أقرب فرصة .. »

لم يبد متحمسًا للفكرة ، لكنه لم ير فيها ضررًا خاصة أن ملامح ابنه ليست واضحة فيها .. هكذا وافق .. وهكذا غادرت داره غارقًا فى التفكير ..

* * *

خمس جثث لأصدقاء من شلة واحدة .. جثة سادسة ماتت قبل الانفجار ..

شخص سابع لا يمت للشلة بصلة .. ولم يمت فى الانفجار ...

ستة أشخاص اجتمعوا فى ذلك المخزن لطقوس غامضة ، ثم حدث الانفجار .. هل كانوا يعرفون بوجود بقايا (ياسر) هناك ؟...

كيف مات (ياسر) ؟...

ـ « احترس أيها الحمار !! »

وأنت الفرامل بينما سائق العربة يحاول منع المصيبة التالية ، فوثبت إلى الإفريز .. بينما هو يطلق علىَّ فيضًا من السباب استأهلته بجدارة .. مشكلتى أننى لا أقدر على الجمع بين التفكير العميق والبقاء حيًّا .. هذان نشاطان بشريان لا يجتمعان ..

فما أن أيقنت أننى سليم حتى عدت إلى التفكير ..

هل هو (شاكر) أم (بدر) أم (محمود) أم (كمال) ؟

ماذا كان يفعله فى المخزن مع هؤلاء ؟..

من هو القادم ليلاً الذى ينذره بأنه لا فرار ..؟

* * *

ـ « هل أبدأ من هنا يا دكتور ؟ »

ـ « بل من هنا .. »

وأشرت إلى موضع فى الأرض قدرت أنه لم يمس منذ الانفجار .. كان موضعه هو أفضل لكننى قررت أن ألعب دور من يعرف ما يفعله ..

بدأ الرجل يحفر والعرق يغمره ، بهذه السرعة قبل أن يبدأ .. أحب هذا الحماس ..

أشفقت عليه من كل هذا الجهد العضلى ، ثم قلت لنفسى إن هناك أشخاصًا يناسب تكوينهم هذه الأعمال العنيفة ، بينما أنا يناسبنى أكثر ـ لحظة للهاث ـ الجهد الفكرى .. هذا الجهد يتعب قلبى ويجعلنى أغرق فى العرق ..

كان المخزن مخيفًا فى ضوء الغروب .. المنطقة صارت مهجورة تقريبًا ، ولم يبق فيه أصلاً ما يصلح لأن تدعوه (مخزن) بقلب مستريح .. فقط هناك أربعة أطلال تذكرك بالأطلال التى كان شعراء العرب يشببون فى معلقاتهم عندما يمرون بها .. وكأنها (مراجيع وشم فى نواشر معصم) ..

كان هنا انفجار مروع أزال السقف وأكثر الجدران .. تحول المخزن إلى أطلال ينعق فيها البوم وتتخذها الكلاب الضالة مأوى وحمامًا ...

كنت أعرف أن بعض الإجابة على أسئلتى هنا ؛ لذا بحثت عن أحد العمال الذين يبيعون جهدهم العضلى ولا يسألون كثيرًا ... طبعًا أصابته الدهشة ؛ لأنه كان يتوقع أن أطلب منه حمل (مترين) من الرمال إلى الطابق الرابع أو أى شىء من هذا القبيل .. لكن الحفر فى مخزن مهدم ؟

ـ « هل تبحث ـ بلا قافية ـ عن مال مدفون هنا ؟ »

ـ « تقريبًا .. »

وكنت أعرف أن هذا المكان لم يعد فى نطاق عمل الشرطة .. لم يعد دليلاً .. ليس هناك حارس أو خفير .. لقد عاد المخزن المهدم إلى ما كان عليه : مجرد مخزن مهدم ..

والآن ـ عند الغروب تحاشيًا للأسئلة ـ أقف هنا أراقب عملية الحفر .. سوف أعمل بطريقة عشوائية .. أنتقى أكثر من موضع .. ربما وجدت شيئًا أو لم أجد ..

اسم العامل (صميدة) .. من (موشى) بالصعيد .. لديه زوجتان وسبعة أطفال لم يرهم منذ عام ... الحقيقة أنه اعتبر أن عليه أن يقدم لى تقريرًا وافيًا عن أحواله العائلية وهو يعمل .. لسبب ما اعتبرنى فضوليًا جدًا وراح يروى هذا الفضول ..

لديه آلام فى أسفل الظهر وتضخم بالبروستاتا .. وقد عولج من البلهارسيا منذ عامين لكن ..

كانت الأرض ترابية .. وعليها آثار عشرات الأقدام ..

مساحة المخزن ذاتها لا تتجاوز ستة أمتار فى خمسة أمتار .. لا أعتقد أن معامل التخليل تحتاج إلى مساحة أكبر .. مكان خال

تمامًا إلا من بقايا براميل خشبية لا أعرف إن كانت كذلك من البداية أم أن الانفجار هو السبب ..

ما الذى يدفع إنسانًا بكامل قواه العقلية إلى إحضار أسطوانة غاز إلى هذا المكان ؟

هناك الآن حفرة .. حفرتان .. طلبت منه ألا يبالغ فى عمق الحفرة .. أريدها حفرًا استكشافية كالتى يحدثها أى نمس فى حديقة ..

لكن الظلام يزحف والرجل يعرق وأنا أشعر بالملل ..

من الجلى أنه لا يوجد شىء وأنا أحمق ...

ـ « يبدو أن الأمر قد انتهى يا ريس صـــ ... »

هنا سمعته يصرخ كأنه امرأة هستيرية مصابة بسرطان الحنجرة ، داست على ثعبان ..

* * *

الآن أرى العظام .. عظام إنسان بلا شك ...

تراجع هو للوراء وراح يبسمل ويحوقل .. إنه صعيدى ثابت الفؤاد لكنه لم يتوقع هذه المفاجأة .. الظلام والخرائب .. كل هذا أيقظ فيه تراثاً هائلاً من قصص الغولة والجان مشقوقى الأعين بالطول .. فلن يندهش لو وجد أننى تحولت إلى عملاق أزرق اللون ..

انحنيت وتفحصت العظام ..

لو كنت سعيد الحظ لوجدت أن ...

لكن هذه عظام طفل ..!.. أكره أن أقول هذا لكنها الحقيقة .. عظام طفل .. وهذا يعنى أنها لا تمت بصلة لذلك الفتى (ياسر) ..

هذا المخزن ليس مخزنًا قدر ما هو سلة مهملات كبيرة .. أو خزانة مأكولات ...؟

* * *

9ـ زيارة أخيرة ..

هو القادم ليلاً حين يغفو الجميع ..

* * *

من جديد ظهر الشبح المألوف على الباب ..

كان فى الآونة الأخيرة قد صار أكثر انتظامًا فى مواعيده .. غالبًا ما يظهر فى الدقيقة الأخيرة قبل منتصف الليل ..

ـ « من قبضة القادم ليلاً .. لا أحد يفر .. »

برغم أن هذه اللقاءات معتادة ويومية فإنه ما زال يرتجف هلعًا من تلك اللحظة .. استجمع شجاعته وصاح بالعبارة التى تمنى أن يسألها :

ـ « من أنت ؟.. ماذا تريد منى ؟ »

أرادها غاضبة فخرجت أقرب إلى بكاء متوسل ..

ـ « أنا القادم ليلاً ... أريدك ألا تنسى .. »

ـ « أنسى ماذا ؟ »

ـ « مادمت سألت فأنت نسيت .. سوف تتذكر أو موتًا تموت .. »

ثم توارى الشبح من جديد ..

جلس فى الفراش يرتجف .. ما سر هذه الزيارات ؟.. إن حياته معقدة بما يكفى فلا تحتاج إلى المزيد .. ولماذا لا يتذكر ؟.. لماذا لا ترتاد الخيالات ذاكرته ؟.. لم يستعد أية ذكرى منذ الحادث إلا هذه الغرفة الحقيرة التى يقيم فيها ..

قرر أن يزور العجوز (رفعت إسماعيل) غدًا ليرى ما لديه ..

* * *

وقف على باب شقتى وابتسم ..

أنا من أعطاه عنوان البيت وعلىّ أن أتحمل ..

أمقت الأشخاص الذين يعتبرون ظهورهم هدية الأقدار لروح معذبة ؛ لذا قلت له فى نفاد صبر :

ـ « هلا دخلت من فضلك ؟.. إلا لو كنت تقدم إعلانًا عن معجون أسنان .. »

لم يفهم الدعابة لأنه لا يفهم طريقتى .. لكنه دخل على كل حال ..

قلت له :

ـ « هل من خيوط أخرى ؟ »

حكى لى كل ما استجد فى قصته فى الفترة الأخيرة .. وقال إنه لا يملك أية أرضية ليعتقد أننى محق بصدد نظرية (الصحفى ـ المغامر ـ الذى ـ غير ـ اسمه) ..

أخرجت صورة ووضعتها تحت أنفه ، وقلت بلهجة المنتصر :

ـ « هل تعرف هذا الفتى ؟ »

نظر للصورة طويلاً .. لن أعرف إذا كان لا يتذكر أم هو يتظاهر بذلك .. فقط قال فى هدوء :

ـ « لا أعرفه .. لكن هذه صورتى بالتأكيد .. »

قلت :

ـ « المفترض أنك صديقه وتدعى (شاكر) .. الفتى يدعى (ياسر) .. وهو من شلة المخزن المنفجر .. »

ـ « هذا طبيعى .. أعتقد أننى كنت من الشلة أيضًا .. »

ـ « لا لم تكن من الشلة .. لكنك صديق (ياسر) .. و(ياسر) قد توفى فى ظروف شنيعة قبل الانفجار بوقت طويل .. »

نظر لى فى حيرة ، وقال :

ـ « لا أفهم .. ماذا ترمى إليه ؟ »

قلت فى ضيق :

ـ « ليتنى أعرف .. كأن عطسة تريد أن تخرج منى فلا تكتمل .. بيت الشعر جاهز لا ينقصه إلا حرف الروى .. كنت آمل أن تقدم لى أنت هذه المساعدة الأخيرة .. ساعدنى على إخراج العطسة ! »

هنا دق جرس الهاتف .. فرفعت السماعة ورحت أصغى بعض الوقت ..

فى النهاية قلت للمتكلم :

ـ « لا .. لا داعى .. لقد جربنا هذا كثيرًا .. أعتقد أن النتائج صحيحة .. »

ثم وضعت السماعة ..

ـ « أستميحك عذرًا لحظة . »

وتوجهت إلى غرفة نومى ، فبحثت عن زجاجة (النيتروجلسرين) ووضعت قرصًا تحت لسانى .. وانتظرت قليلاً حتى راح النبض يتردد فى جمجمتى والصداع ..

ثم اتجهت إلى المطبخ ، فأعددت له مشروبًا ، ثم دسست السكين فى جيب الروب الذى أرتديه وعدت له ..

وضعت الكوب أمامه فتأمل المشروب فى فضول ، وقال :

ـ « ما هذا ؟ »

ـ « عصير طماطم مُحلى .. جربه فلن تجده رديئًا .. »

رفع الكوب إلى فمه وجرع جرعة كبيرة ، ثم بدا عليه الرضا ، وقال :

ـ « لا أعرف ما هو .. لكنه منعش لذيذ .. »

قلت وأنا أجلس على مسافة بعيدة منه :

ـ « هل تعرف الهاتف الذى جاءنى الآن ؟.. إنها المستشفى .. كنت قد طلبت أرقام آخر تحليل أجريته هناك .. إن صورة دمك عجيبة فعلاً .. هل تعرف ما يحتويه دمك من مادة الهيموجلوبين ؟.. »

ـ « لست طبيبًا يا سيدى فلا تتعبنى بالأرقام .. »

ـ « لا يجب أن تكون طبيبًا كى تعرف أن خمسة أقل من تسعة .. وأن الصفر أقل من الاثنين .. فقر الدم يبدأ حين يقل الهيموجلوبين عن أحد عشر جرامًا تقريبًا .. نفكر فى نقل الدم حين يتدنى الرقم عن تسعة .. ثلاثة لا يتفق مع الحياة أصلاً .. لكن ماذا تقول عن رقم (صفر) ؟ »

اتسعت عيناه ونظر لى فى حذر ، فقلت :

ـ « نعم .. الهيموجلوبين عندك صفر .. لقد قاموا بتكرار التحليل عدة مرات وفى كل مرة يظفرون بالنتيجة ذاتها .. هل تعرف معنى هذا ؟ »

نظر لى ولم يعلق ، وكان قد فرغ من الشرب فوضع الكوب على المنضدة .. فأضفت :

ـ « هذا الذى تشربه وتستسيغه ليس سوى كبد بقرى نيئ أعددته لغدائى ، لكنى قمت الآن بخفقه بالخلاط ، وأضفت بعض السكر له .. هذا مشروب مقزز لا يتحمله كائن طبيعى .. لكنك شربته وأحببته ولم تلحظ شيئًا غريباً فيه .. بينما لم تعد تطيق أى نوع من الأطعمة ولا المشروبات العادية .. هل تعرف معنى هذا ؟ »

اتسعت عيناه أكثر ووضع يده على رأسه ، فقلت :

ـ « المخزن الذى انفجر لم يكن مخزنًا .. كان غرفة طعام .. ثمة غول كان يقتاد ضحاياه إلى هناك .. أعتقد أن (ياسر) كان آخر ضحاياك ... وأعتقد كذلك أن الأصدقاء خمنوا حقيقتك وقرروا أن ينهوا اللعبة معك .. استدرجوك إلى هناك وحاولوا إحراقك .. لكنهم كانوا حمقى وحدث الانفجار الذى أودى بهم جميعًا .. وبقيت أنت حيًا لكنك نسيت كينونتك .. إنك تستمد وجودك من الآخرين ،

وربما كانت قياسات المستشفى فى البداية تدل على آخر وجبة التهمتها .. كان الهيموجلوبين منخفضًا جدًا لكنه موجود .. »

هل عيناى تخدعاننى أم أن ملامحه تتغير ؟

واصلت الكلام :

ـ « لا يعلم إلا الله من أنت حقًّا .. أنت تمارس أكثر من حياة مع أكثر من شخص .. والغرض أن تقتادهم جميعًا بكامل إرادتهم الحرة إلى المخزن لتنهى ما بدأته .. هذا هو كل ما عندى يا بنى .. وآخر ما يجب أن أقوله هو أننى دسست لك كمية لا بأس بها من أقراص المنوم فى هذا المشروب .. لا أعرف إن كان سيؤثر فيك لكنى أعتقد أنك احتفظت ببعض الصفات الفسيولوجية البشرية برغم كل شىء .. أما إن لم يؤثر .. فعندى حل آخر .. »

وأخرجت السكين من جيب الروب ..

ـ « لن أؤذيك .. لكنى سأنقل خواطرى للشرطة .. ولسوف يأخذونك نائمًا إلى حيث يعرفون حقًّا ما علاقتك بهؤلاء الفتية و(ياسر) .. »

هنا راح رأسه يتأرجح ..

حمدًا لله .. أعتقد أنه سينام فعلاً ..

راح يردد من بين أسنانه التى خيل لى أنها مدببة :

ـ « نعم .. نعم .. الآن أتذكر .. البلهاء تهامسوا .. يبدو أن (ياسر) هذا كان قد ترك رسالة لأحدهم يخبره بموعدنا فى المخزن .. قرروا أننى قتلته .. يبدو أن أحدهم فتش المخزن وخمن ما أفعله .. هكذا طلبوا لقائى هناك .. كانوا مزودين بكتاب سحر قديم ومعهم تلك الأسطوانة .. آه .. المخابيل .. عود ثقاب أمام صمام الأسطوانة واللهب مسلط علىَّ .. أنا لا أموت بهذه الطريقة .. انفجار .. كلهم ماتوا .. الآن أتذكر .. »

ثم راح يصرخ وهو ينظر إلى السقف :

ـ « القادم ليلاً هو أبى .. نعم .. نعم .. أنا فى قبضته .. لا فرار لى .. سأظل كما كنت .. يأتينى كل مساء ليذكرنى بمهمتى .. لا فرار .. لا فرار .. »

كنت أنا فى حالة سيئة بالطبع .. لماذا لا ينام هذا الأحمق ؟؟

قال وقد صار وجهه غريبًا بالفعل .. وجهًا لا يمتُّ له بصلة :

ـ « أنت أعدت لى ذكرياتى .. الآن أعرف من أنا .. أنا غول وسأظل كذلك !... »

وقبل أن أفهم ما يحدث كان قد وثب من مقعده وبضربة واحدة وجدت نفسى فى نهاية الصالة جوار مدخل المطبخ .. هنا فقط عرفت أن الأقراص المنومة لا تؤثر فى المسوخ ..

كان الآن يصدر زئيرًا كالدببة .. وبيد مرتعشة فتح الرتاج وغادر الشقة ..

لابد أننى استغرقت ربع ساعة راقدًا على الأرض تؤلمنى عظامى ... لا أصدق أنه ذهب ..

لكنه فعل ذلك ..

* * *

10- بداية خيط ..

هو القادم ليلاً ..

* * *

لماذا تركنى ؟

لا أعتقد أن هناك تفسيرات كثيرة .. تركنى لأنه بحاجة إلى أن يخلو بنفسه ..

موقف عسير بعض الشىء .. أن تفقد ذاكرتك وتقضى وقتًا فى محاولة استعادتها ، فقط لتكتشف أنك غول !... تفيق وسط مجموعة من الجثث لتعرف أنك مسئول بشكل ما عن قتلهم ..

والآن ترى ما هى خطوته التالية ؟

هل يعود لى ؟

ما هو عنوانه ؟.. المشكلة أننى لا أعرف من هو حقًا .. هل هو (بدر) ساكن السطح المتزوج سرًا من جارته الحسناء ؟.. أم هو (كمال) المتورط فى صفقة مشبوهة ما مع رجل مشبوه ؟.. أم هو (محمود) الذى يريد أن يترك زوجته ؟.. أم هو الصحفى (عصام) الذى لا ينعم بعلاقة طيبة مع رئيس التحرير ؟.. أم هو (شاكر) الذى كان صديقًا لـ (ياسر) ؟...

هناك خيط واحد يمكن أن أبدأ به ...

* * *

الشك والحذر طبيعة المحامين ؛ لذا لم يبد الأستاذ (فهمى) على استعداد على الإطلاق لتصديق قصتى المعقدة عن صديقى (محمود) الذى أريد الاتصال به ..

قلت له ملحًا :

ـ « ليكن .. لا عناوين .. لكنى أريد رقم هاتف .. »

فكر قليلاً وراح يتأملنى ، ثم سألنى بلا تكليف :

ـ « هل أنت تعمل مع (جابر) ؟.. »

ـ « (جابر) من ؟ »

ـ « (جابر عبد الستار) المحامى .. »

تذكرت الاسم .. هكذا قلت فى ثقة وهدوء :

ـ « لا أعرفه .. لكنى أريد أن أعرف نوعية الخطر أو الأذى الذى يمكن أن يحدث لو أطلعتنى على رقم هاتف (محمود) .. »

ـ « لا أعرف .. لهذا لا أعطيه لك .. كل ما لا أعرفه يجعلنى أنكمش وأكون أكثر حذرًا .. لا تؤاخذنى لكن هذه طبيعة المحامين .. »

رحت أفكر فى حل .. فى النهاية لم أجد .. هكذا نهضت محبطًا ..

هنا قال لى وهو يخط شيئًا على ورقة :

ـ « هاك رقم هاتف زوجته .. مدام (عزة) ... لو كنت تعمل معها فأنت تعرفه .. لو كنت صادقًا فهى ستخبرك بكل شىء .. »

قلت له وأنا أفكر مليًا :

ـ « لقد غيرت رقم هاتفها .. »

ـ « وهذا هو الهاتف الجديد .. »

ثم أرخى وجهه ونظر لى بما معناه (هل ـ من ـ شىء ـ آخر ـ تطلبه ـ فلا ـ أمنحك ـ إياه ؟) ..

قلت له وأنا أدس الرقم فى جيبى :

ـ « ربما كان هذا كافيًا .. شكرًا .. »

* * *

كانت (عزة) بطبيعة الحال أكثر حذرًا ..

قلت لها إن لدى أشياء مهمة بصدد زوجها ، وإننى راغب فعلاً فى لقائها فى أى مكان تحدده ..

قالت فى حدة :

ـ « لكنى لن أقابلك فى مكان عام ولا فى بيتى .. »

جميل .. جميل .. قلت لها فى برود :

ـ « ليكن .. ربما أستطيع العثور على كهف فى أعماق المحيط أو وسط جبال القمر .. ربما فى عالم مواز لو أردت .. »

ـ « هل تمزح ؟ »

ـ « طبعًا أمزح .. الاقتراحات العجيبة لا تستحق إلا المزاح .. »

فكرت قليلاً .. الحقيقة أنها فعلاً كانت راغبة فى معرفة ما أحمله ، لذا حددت لى مكانًا ألقاها فيه ، وسوف تلتقطنى بسيارتها وتتم المحادثة هناك .. إجراءات معقدة جدًا سوف تتخلى عنها فورًا لو رأت مظهرى المتهالك .. لا أصلح للعب دور (ستيفان روستى) فى الأفلام القديمة أبدًا ..

وكان اللقاء مختصرًا . هى كما وصفها زوجها وألعن .. متحذلقة .. تدارى عينيها بتلك العوينات السوداء فلا تعرف كيف تبدو روحها .. تذكرنى بالطلاء الأزرق الذى كنا ندهنه على النوافذ عام 1967 إتقاء للغارات .. كذلك هى تطلى نافذة روحها بهذا اللون الأسود فلا تعرف حقًا ما تفكر فيه ..

كنت مختصرًا : زوجها يعانى مشكلة نفسية عويصة ولابد من أن أجده ، ولابد من أن تخبرنى لو طلب لقاءها .. هى كانت مختصرة : قابلته من عام وتحابا وتزوجا .. لكنه بدأ يبتعد عنها وهو يريد الطلاق من فترة .. لكنه يريد طلاقًا بموافقتها .. تعتقد أنه يميل لواحدة أخرى ..

ثم فكرت قليلاً ، وأضافت :

ـ « هناك بيت لكنه لا يذهب إليه .. أنا متأكدة من هذا .. »

(سيذهب الآن بعد ما استعاد ذاكرته) ... هكذا قلت لنفسى ..

أمسكت بورقة صغيرة وراحت تخط لى عنوانًا :

ـ « إنه بيت فى عزبة ريفية .. هذا البيت يخص أسرته كما قال .. هذا هو العنوان .. اسم القرية .. »

ـ « هل قابلت أسرته ؟ »

ـ « لا .. زيجتنا كانت غريبة فى كل شىء .. ويبدو أنها ستنتهى نهاية أغرب .. »

ثم توقفت بما معناه أن بوسعى الرحيل فقد انتهى الكلام ... ترجلت من السيارة .. فانطلقت لا تلوى على شىء ..

ـ « لا تنسى أن تتصلى لو ... »

لكنها كانت قد ابتعدت وسط سحابة من دخان الزيت المحترق ، الذى ينبئ بنهاية عمر موتور هذه السيارة قريبًا بعون الله ..

لا أعرف إن كنت أفدتها ..

لكنها بالتأكيد أفادتنى ..

* * *

11- المواجهة ..

هو ..

* * *

قال لى الرائد (سليمان) وهو يشعل لفافة تبغ أخرى :

- « لماذا تعتقد أنه سيظهر هنا بالذات ؟ »

كنت أنظر إلى العزبة التى تقترب ، وقلت له :

- « مجرد حدس .. هو لن يستخدم المخزن ، بينما استعاد ذاكرته فلابد أنه تذكر هذه العزبة .. »

ثم أضفت بخيبة أمل :

- « بالطبع ما لم يكن عنده مكان آخر أنسب .. »

قال الرائد (سالم) الجالس فى المقعد الخلفى ، وهو يلهث بسبب ضيق المكان بالنسبة لجسده الضخم :

- « الحقيقة أننا لا نصدق حرفًا مما تقول يا دكتور .. لكن هذا الرجل مثير للاهتمام فعلاً .. لا توجد معلومة واحدة ثابتة عنه .. لا نعرف من أين نبدأ .. التوكيل فى مكتب المحامى مزور .. الأوراق التى قدمها للجريدة مزورة .. حتى أوراق امتلاك هذه

العزبة لا نعرف أين هى .. هذا رجل لا يمكن الإمساك ببدايته ، وهذه هى النقطة الوحيدة التى تهمنا .. »

كان الرائد (سليمان) هو الذى يقود سيارته .. شاب وسيم هو أقرب من زميله إلى تصورنا لضابط الشرطة عامة .. ومن الواضح طبعًا أن هذه الرحلة تتم بشكل غير رسمى ، وعلى مسئوليتى الشخصية .. إن العلاقات الشخصية تجدى أحيانًا ... لكنهم لم يستطيعوا إثبات أن صاحب العزبة هو نفسه المزور .. هكذا كان قرارهم هو : فلنذهب ونلق نظرة ...

وأنا لم أكن أهتم بالتزوير .. كنت مهتمًا بأشياء أخرى تعرفونها جيدًا ...

أخيرًا نرى الحقول الممتدة .. هناك أشجار نخيل وحقل من الذرة .. ثمة مجرى ماء وبيت بسيط يقف وسط المكان كأنما هو يستشرف القادمين ..

قال (سليمان) :

ـ « لا أرى خفراء ولا أجيرًا ولا خوليًا ولا أى شىء .. هذا المكان مقفر .. »

ـ « لا تعتمد على هذا .. »

قالها زميله وهو يشير من النافذة ..

بالفعل كانت هناك سيارة تقف هناك .. على بعد خمسين مترًا ...

سيارة (فيات) زرقاء أعرفها جيدًا ، وأعتقد أن محركها يحتاج إلى (عمرة) سريعة ..

أطلقت سبة برغمى ، وغمغمت :

ـ « الحمقاء !... كان يجب أن تخبرنى ! »

نظر لى الرائد (سالم) ، وقال :

ـ « هل تعرف السيارة ؟ »

ـ « سيارة زوجته .. أعتقد أنها جاءت لتخبره بالأحمق الذى سألها عنه .. »

أوقف (سليمان) السيارة ، وفتح الباب .. وتأوه من ألم استرخاء عضلات ساقيه بعد كل هذه القيادة .. ثم أشار لنا كى نترجل ..

ـ « سنذهب لنلقى التحية ... »

قال زميله :

ـ « لاحظ أن وضعنا غير رسمى .. »

ـ « لن يسألنا عن أوراقنا .. فقط أريد أن أراه رأى العين .. »

وهكذا انفتح بابان وترجل رجلان ...

* * *

على الباب توقف (سليمان) كأنه فى فيلم سينمائى فى وضع توقف الكادر Freeze frame .. وكانت يده فى الهواء موشكة على الدق ..

تصلب قليلاً ثم أصاخ السمع ..

ـ « هل يحتفظون بكلب هنا ؟ »

ـ « لا أعرف .. »

نظر لى ولصاحبه ، ثم مد يده إلى الباب .. ثم تراجع ..

ـ « أرى أن نبحث عن مدخل آخر .. »

وهكذا رحنا ندور حول البناية فى حذر ..

هناك باب خلفى متداع .. حالته لا تسمح بغلقه على كل حال .. ونظر لنا نظرة أدركنا معها أننا سنتسلل دون جلبة من هذا الباب ..

همس (سالم) :

ـ « لاحظ أننا لا نحمل إذنًا بالتفتيش .. »

قال فى تصميم وهو يفتح الباب :

ـ « لاحظت هذا .. »

ثم اجتاز المدخل وتبعته .. من الطريف أننى الشخص الوحيد الذى يمكنه أن يدخل .. إن تهمة التسلل لممتلكات خاصة لا تساوى تهمة اقتحام بيت دون إذن من النيابة ..

لكن هذه الضجة مستمرة بالفعل ...

أنكر هذا الصوت .. ليس صوت كلب .. بل هو أقرب لصوت دب ؟!..

* * *

« كان الآن يصدر زئيرًا كالدببة .. وبيد مرتعشة فتح الرتاج وغادر الشقة .. »

* * *

البيت يتكون من طابقين ... بناء بدائى صممه مهندس مخبول على الأرجح ... لا يوجد بلاط .. كل شىء يوحى بأنه فى مرحلة (التشطيب) يومًا ما .. لا يوجد أثاث من أى نوع ..

ثمة ممر على اليمين .. مشينا وراء (سليمان) ونحن لا نكف عن التلفت ..

دخل الممر فبلغ نهايته التى تطل على ما يبدو على ساحة .. تلك الساحات المخصصة لتربية الماشية .. حظيرة مكشوفة أو شىء من هذا القبيل ..

هنا توقف فى مكانه فاصطدمت به من الخلف ...

وسمعته يغمغم :

ـ « يا أرحم الراحمين !! »

* * *

كان المشهد عسيرًا على التصديق ..

سأحاول أن أكون مختصرًا .. أنت تملك خيالاً ويمكنك تصوره ..

لقد بدا لنا ذلك الفتى بالفعل كأنه دب حقيقى .. دب آدمى .. وكانت فريسته هناك .. بعضها على الأرض وبعضها معلقًا على خطاطيف .. المخيف فى الأمر أنها لم تكن الفريسة الوحيدة ..

يزحف على أربع ويطلق ذلك الزئير المخيف ..

لقد ارتبكت (عزة) خطأ حياتها حين ذهبت لتلقاه وحدها بعد ما استعاد ذاكرته ..

لقد تذكر من هو الآن تمامًا .. وعاد يمارس عمله الذى كان يمارسه منذ .. يعلم الله منذ متى ..

وهتف (سليمان) وهو يخرج مسدسه :

ـ « أطلق الرصاص يا (سالم) !.. اضرب (فى المليان) !! »

ولم يكن (سالم) بحاجة إلى دعوة لأنه راح يطلق الرصاص فى هستيريا ، وقد افقده المشهد كل تعقل ..

ـ « يا أرحم الراحمين !!.. يا أرحم الراحمين ! »

لكنى توقعت ما سيحدث ..

الدب الآدمى يستدير نحونا ويزأر من فمه الملوث بالدماء ..

لن يقتله الرصاص يا سادة .. الوحش الذى ينجو من انفجار مروع .. الوحش الذى لم يتجاوز صبغ الهيموجلوبين فى دمه صفرًا .. لن يقتله الرصاص ..

لهذا أعد الشباب كتب السحر والرموز الدينية وأسطوانة الغاز .. لقد كانوا يعرفون ما ينتظرهم ..

تركت المشهد الدامى وجريت نحو السيارة ..

صوت الطلقات يدوى .. لابد أن هذا الشىء قد تلقى عشر طلقات على الأقل .. وما زال يزمجر ..

لابد أننى فقدت وعيى لثوان ثم استعدته لأجد أننى ممدد على مقدمة السيارة .. عرفت أنها ثوان لأن الطلقات استمرت .. ثم برز لى الرائد (سالم) وهو يتصبب عرقًا ..

فتح باب السيارة ومن (التابلوه) تناول مجموعة من الطلقات وراح يحشو مسدسه ويده ترتجف ..

صحت فيه :

ـ « لن يجدى هذا .. هل لديكما بنزين ؟ »

فتح الحقيبة الخلفى وأخرج (جركن) مليئًا بالسائل الحارق ..

هكذا عدنا إلى البناية حيث كان الرائد (سليمان) يطلق الرصاص على الشىء .. هذه الطلقات كانت تعوق تقدمه لكنها لا تحدث أى أثر فيه ..

صحت وأنا أفتح (الجركن) :

ـ « توقف .. سنحرقه الآن ! »

وبعثرت السائل الخطر على الوحش ...

هنا حدث شىء غريب ..

لقد وقف على قدميه الخلفيتين ونظر نحوى .. بعينين من نار نظر لى ... ومن فمه الدامى خرجت الكلمات التالية :

ـ « لن تجدى النيران .. صوب على الرأس ! »

لم ينتظر (سليمان) أكثر .. بل أحكم التصويب نحو رأس الشىء وانطلقت الرصاصة ..

وفى اللحظة التالية تهاوى الشىء أرضًا ...

أما (سالم) فقد أشعل عود ثقاب وألقاه على كتلة البنزين ... وسمعنا الـ (فهام !) المميزة ، وشعرنا بأن وجوهنا تحترق فتراجعنا ..

قلت له وأنا أرتجف :

ـ « لقد أراد أن يموت .. هذا الدور لم يرق له .. »

ـ « ماذا تقول ؟ »

ـ « لا شىء .. »

وابتعدنا عن المنظر الفظيع ..

هنا سمعنا صوتًا يختلف .. صوت عويل .. صوتًا يذكرك بعويل الذئاب فى الصحارى المقفرة ..

هتف الرائد (سليمان) وهو يلهث من فرط انفعال :

- « ما هذا ؟ »

زحفت بحذر إلى حيث كانت تلك الحظيرة والتى كانت مسرحًا لهذه الأحداث الشنيعة ..

كانت النيران تنتشر الآن ...

ووسط ألسنة اللهب خيل إلى أننى أرى شبحًا .. شبحًا بلا رأس .. فارع القامة .. ينحنى وسط النيران على الجسد الممدد ومن فم لا أعرف أين هو يطلق ذلك العويل ..

لقد كان يحتضن ابنه .. ابنه الذى فضل الموت على حياة أدرك أنها كانت حياته ..

لقد جاء القادم ليلاً .. لكنه جاء فى ضوء النهار ..

كان الصوت القادم من لا مكان يقول :

- « الدم .. الدم !... الانتقام ! »

هرعت إلى الضابطين ، وابتلعت ريقى وقلت :

- « لا أرى وقتًا خيرًا من هذا للفرار ..! »

لم يسألا أكثر وسرعان ما كنا فى السيارة التى تطوى المسافات .. لم يعد من أثر لنا إلا سحابة دخان تعتلى السماء .. وصوت عويل يبتعد أكثر فأكثر ..

* * *

اعتقد الضابطان أنها النهاية ..

لم تعد هناك مشاكل إلا تقديم تقرير يقنع الرؤساء ..

وقال لى أحدهما وهو يحاول التصويب على لفافة تبغ مرتجفة متدلية من فمه :

- « رباه !... لقد عرفت ما سأراه فى كوابيسى بقية حياتى .. »

وقال الآخر :

- « لكن الكابوس انتهى .. هذا ما أعتقده .. »

لكنى كنت أعرف أفضل ..

القادم ليلاً لا يجدى معه الإسراع بالسيارة .. وكما يقول الأمريكيون فى قصص رعاة البقر : أعطنى يومًا أنعى فيه قتلاى ، بعدها آتى إليك ..

لا أعرف إن كانت الشياطين تحمل نزعة الانتقام لأبنائها ، لكنى متأكد من أنها تحب الانتقام .. وبالتأكيد تستطيع العثور على ضحاياها .. لا تحتاج إلى عناوين ولا أرقام هاتف ..

وبعد أيام حين قرأت خبر اختفاء المحامى (فهمى) ، رحت أفكر .. هل هو الوحيد ؟.. ربما اختفت (مها) وربما اختفت تلك الفتاة سكرتيرة الجريدة .. ترى ما اسم ذلك الرجل الذى كان يرتب لصفقة غامضة مع (كمال) ؟

ربما وجد القادم ليلاً من يمارس المهنة من بعد ابنه ..

ربما يفعل هذا بنفسه ..

ربما يأتى ذات ليلة لأجده واقفًا على باب حجرتى ..

* * *

- « أنا أنتظرك .. من قبضة القادم ليلاً لا أحد يفر .. »

* * *

انتهت القصة إذن ..

وكان لى موعد مع مصاصة دماء مخيفة بالفعل .. شخصية مهمة جدًا فى الأساطير العبرانية .. هل خمنتم أنها (ليليث) ؟...

لكن هذه قصة أخرى ...

د . رفعت إسماعيل
القاهرة

يقترب القادم أكثر .. أكثر .. لكنه ما زال مغمورًا فى الظلال .. بصوت غريب كأنما هو هلوسة سمعية لا وجود لها يقول :

ـ « أنت لى .. لا تنس هذا .. »

لم يكن هناك داع للتلفت ولا البحث عمن يوجه له هذا الكلام .. إنه يخاطبك أنت .. هذا واضح .. وهذا الصوت لا يمت لهذا العالم .. كل شىء فيه لا يمت لهذا العالم ..

ـ « أنا أنتظرك .. من قبضة القادم ليلاً لا أحد يفر .. »

ثم يتراجع الظل للوراء ، وهو يردد :

ـ « لا أحد .. لا أحد .. »

أسطورة مصاصة الدماء

بقلم : د . أحمد خالد توفيق

مقدمـــة

سأحاول أن أكون مختصرًا .. أنا د. (رفعت إسماعيل) .. أستاذ أمراض الدم الذى لم يعد كذلك .. صائد الأشباح الذى لم يعد كذلك ... مجرد شيخ عجوز يجلس فى غرفة مكتب مغلقة على ضوء الأباجورة ، يرتدى روبًا صوفيًا سميكًا وعلى رأسه قلنسوة من فراء تذكرك بصور (ستالين) وهو فى (سيبيريا) قبل الثورة .. وفى قدماه جوربان يمكن استخدامهما للمشى على القمر ..

يوجد قدح من الشيكولاتة الساخنة يتصاعد منه الدخان .. هذه سن يعتبر احتساء القهوة فيها شروعًا فى الانتحار ..

أنا أخاف الموت .. أحيانًا أقنع نفسى بأننى لا أبالى بهذه الأمور وأن موتى لن يسبب خسارة لأحد ، لكنى من جديد أشعر بأن هذا نوع من التنطع .. ماذا ينتظرنى هناك ؟.. لم أشعر بأننى مستعد لمواجهة خالقى قط ولا أحسبنى سأملك هذا الاطمئنان أبدًا ..

سأحاول أن أتناسى هذا القلق المزمن وأحكى قصة أخرى ..

كنت قد وعدت بالكلام عن ...

عن ماذا ؟

إنه يقول لى :

ـ « وعدت بالكلام عن (ليليث) .. »

فعلاً .. هذا صحيح .. (ليليث) ... يا لها من قصة !!!

10ـ الحاجة إلى عمل شىء ما ..

ربما كان على فى البداية أن أضعك فى الصورة بشكل أكثر دقة .. فأنت تعرف ما حدث وتعرف ما أدى إليه ما حدث ، لكنك غير قادر على رسم الصورة النهائية ما لم تعرف كيف بدأ كل شىء ..

هذا هو ما يضايقنى فيك .. صدقنى .. أنت تثب إلى الاستنتاجات على الفور ، ولا تعمل حسابًا للضعف البشرى أو المصادفات أو تقلبات المزاج المعروفة ، وهذا يجعل الحياة عسيرة .. كأنك تتعامل مع آلات مبرمجة لا تقترف الأخطاء .. دعك من عنصر الملل الذى هو عنصر مهم جدًا فى حياة واحد مثلى .. وهناك عنصر آخر تلخصه تلك القصة التى حكوها عن (نيكسون) :

اجتمعت إدارة (نيكسون) لمناقشة مشاكل التعليم والحاجة إلى تطوير المناهج .. إلخ .. إلخ .. وكلها مشاكل عسيرة لا يرجى لها حل قريب ، وبعد الاجتماع الصاخب خرج الجميع راضين .. سأل الصحفيون عما توصل إليه المجتمعون ، فقال المتحدث الرسمى :

ـ « اتفقنا على تصعيد الغارات على فيتنام الشمالية ! »

هذا هـو مـا حدث !... لا كلمـة واحـدة عن مشكلة التعليم .. يصف المحللون النفسيون الموقف بأنه (الحاجة إلى عمل شىء ما The urge to do something) .. أى شىء . الحركة فى أى اتجاه لا يهم أين .. الحركة لمجرد الحركة ..

هذا هو ما يحركنا كثيرًا ، وحينما نجلس فى النهاية نستعرض تجربتنا الحياتية نندهش لأننا فعلنا كذا وكذا .. ولا يخطر ببالنا أن هناك قوة عاتية تحركنا اسمها (الحاجة إلى عمل شىء ما) ..

* * *

بدأ كل شىء عندما قررت أن ألعب دور مستشار الزواج ..

لا تعجب !.. هذه المهنة معروفة ومحترمة فى الخارج ، وهى تلعب ذات الدور الذى يلعبه الأهل عندنا .. تلك الجلسات التى يلتف فيها أفراد الأسرة : طانط (هدى) وأونكل (محمود) حول الزوجين المتشاجرين لإصلاح ذات البين . الزوج يؤكد أن (عفاف) زوجة مستهترة لا تعرف قيمة زوجها ، و(عفاف) تؤكد أن (إبراهيم) تغير وإنه لم يعد يعرف قيمة الإنسانة التى تشعل له أصابعها العشر شمعًا .. عندها يشعل أونكل (محمود) لفافة تبغ ويقول فى ثقة : « إذن هناك أرضية مشتركة يمكن البدء منها ! »

وتقول طانط (هدى) : « نعم .. نحن متفقان على أن زوجك وغد وشيطان زنيم ولسوف يجاور أبا لهب وأبا جهل فى جهنم ، لكن دعينا نتناس هذا للحظة من أجل الأطفال .. »

فى الخارج لا يوجد لدى أحد كل هذا الوقت ، لهذا وجدت مهنة مستشار الزواج الذى يقصده الزوجان الراغبان فى الانفصال ليقنعهما بالعكس .. مقابل مال طبعًا .

هذه مهنة أبعد ما تكون عن عالمى .. لكن من قال إنها ليست مهنة من لا مهنة له ؟.. أعرف عددًا كبيرًا من حلالى المشاكل فى المجلات والصحف وقد مر بالطلاق ثلاث مرات .. أى أنه هو نفسه بحاجة إلى مستشار عاطفى .. لهذا لا أعتقد أن الأمر سيكون بهذه الصعوبة ..

كنت أعرف (إبراهيم) معرفة سطحية ، وصممت على أن تظل كذلك ، لكنه ـ الوغد ـ أصر على أن تكون معرفة عميقة .. لست أفهم لماذا يريد أى شخص فى العالم أن يرانى بملامحى الكئيبة وسعالى وعصبيتى فى داره ، لكن (إبراهيم) كان مصرًا على ذلك ..

هو طبيب مختص فى أمراض النساء وهذا يجعله مشغولاً طيلة الوقت ، لكن هذا سمح له بالوقت الكافى كى يدعونى إلى داره .. يمكن وصفه فى بضع صفحات أو سطرين ويبدو أننى

سأفضل الحل الأخير .. إنه من طراز (طويل القامة ـ حسن المظهر ـ جهورى الصوت ـ متأنق ـ مولع بالبشر) ..

زوجته (عفاف) التى قدمها لى سيدة بيت بالمعنى الحرفى للكلمة .. وديعة مسالمة فخور بزوجها ، وبطبيعة الحال لم تكن زوجتى معى ... لا أذكر السبب .. آه .. لأننى غير متزوج .. تذكرت الآن . لهذا لم أرها إلا مرة واحدة أثناء تناول الطعام وهى تحملَ وعاء ثقيلاً يتصاعد منه بخار شهى الرائحة .. وقد قلت لها شيئًا على غرار :

ـ « سس .. ضض .. كك .. هم .. شن .. »

فهزت رأسها فى وقار .. رأسها الذى تتوسطه خصلة شعر شائبة لا أعرف إن كانت كذلك أم هى لمسة أرستقراطية مفتعلة .. ووضعت الوعاء وبالمغرفة صبت لنا بعض الحساء فى طبقين ، ثم قامت بتفسيخ دجاجة عملاقة وابتسمت وانصرفت ..

قال لى وفمه ملىء بالدجاج :

ـ « لن تعرف أبدًا قيمة الزوجة الرءوم .. »

ـ « رءوم ؟ »

ـ « أعنى تلك التى ترعى (سبل أهل بيتها ولا تأكل خبز الكسل) .. »

قلت وأنا أرشف الحساء :

ـ « معك حق .. لن أعرف أبدًا .. »

ولما انتهت الجلسة عدت لدارى واعدًا نفسى بأنها آخر مرة .. لكن الدعوات تكررت عدة مرات ، ولما لم يكن لدى ما أقدمه لا أستطيع دعوة هذه الأسرة لعرين الذئب المتوحد الذى هو بيتى فقد كنت أشترى شيئًا فى كل مرة أدعى فيها .. شيئًا رقيقًا مثل علبة مبيد حشرات أو أداة لتطهير المرحاض ..

إلى أن جاء اليوم الذى بدأت فيه مشاجرة أمامى ..

تجاهلت الأمر وقلت لنفسى إن كل شىء فى الكون يتشاجر .. تقول أمى رحمها الله إن (الأمعاء فى بطنك تتشاجر مع بعضها) وهو قول ذو مغزى وإن كنت أجد صعوبة فى تخيل اللفائفى مشتبكًا فى صراع وحشى مع الاثنى عشر ..

لكن الخلافات تصاعدت .. فى كل مرة كنت أسمع أخبارًا سيئة ..

وكان (إبراهيم) يصل للمستشفى صباحًا منتفخ العينين ، منكوش الشعر غير حليق الذقن .. ولم يكن هذا من فرط العمل لأنه صار مهملاً فى عيادته بشكل واضح ..

قلت وأنا أطلب له قدح قهوة :

ـ « يبدو حالك آية فى السوء .. »

ـ « هو كذلك .. »

ـ « المشاجرات المعتادة ؟ »

ـ « نعم .. إننى أعود للدار لأصرخ حتى يأتى موعد النوم .. لم أعد أتحمل .. »

عقدت يدى تحت ذقنى وسألته :

ـ « والسبب فى هذا التغير ؟.. على ما أذكر كانت زوجتك (ترعى سبل أهل بيتها ولا تأكل خبز الكسل) .. »

قال مستسلمًا وهو يفك ربطة عنقها :

ـ « لم تعد كذلك .. لقد صارت وحشًا عاتيًا .. إنها مصرة على أن سلطة الرجل سلطة عتيقة انتهى عهدها ويجب أن تزول .. إن سبب توحش الرجل هو أنه لم يلق امرأة توقفه عند حده ... وتقول إنها لن تقبل منى أمرًا بعد اليوم .. »

آه ..!.. أعرف هذه النغمة .. نغمة الـ Feminist الشهيرة .. إن هذا الاتجاه ـ مساواة الجنسين ـ ليس سيئًا فى حد ذاته ، بل هو أقرب إلى العدل ، لكنه يتخذ على الأرجح لدى النساء نغمة عدائية تجعلها أقرب إلى معاداة كل ما هو مذكر معاداة عنيفة ...

ترى هذا فى كتاباتهن وقصصهن وخطبهن .. الرجل وغد شرير زنيم شهوانى وقح ، وهن ضحايا بريئات والخطأ الوحيد هو أنهن ضحايا بريئات ..

هل بدأ هذا التنمر مع كتاب (الجنس الآخر) لـ (سيمون دو بوفوار) ؟.. لا أعرف حقًا .. لكنه موجود .. وفى أوائل السبعينات اتخذ صورة ثورة عالمية ضد سلطة الرجل أطلق عليها فى الغرب اسم Bra burners .. ويبدو أن هذه النزعة لابد أن تمتزج مع الاسترجال بشكل أو بآخر .. ومنذ زمن سحيق عرفت الأساطير قصة مجتمع الأمازون الذى نبذ الرجال تمامًا .. لفظة أمازون Amazon نفسها تعنى أنهن نساء تخلين عن الثدى ليصير إطلاق السهام أسهل ..

كل هذا جميل ومفهوم ، لكن من أين تسرب هذا الاتجاه للزوجة البسيطة الراضية بدورها البيتى ؟

ـ « كيف تسرب هذا الاتجاه لزوجتك البسيطة الراضية بدورها البيتى ؟ »

مط شفته السفلى فى غباء ، وقال :

ـ « لو عرفت لاسترحت .. لو كان مكانًا لذهبت وحرقته ، ولو كان شخصًا لذهبت إليه وانتزعت حنجرته بأسنانى .. لكن الأمر يبدو كأنه جاء من سماء صافية .. »

ثم نظر لى فى توسل ، وقال :

ـ « أنت واسع العلم .. هل تعتقد أن الإنسان يتغير فجأة ؟ »

ـ « ما لم يصب بمرض عقلى لا أعتقد .. لابد من تراكمات وأسباب .. وسل عن هذا أى كاتب دراما يجيد عمله .. »

ـ « والحل ؟ »

قلت له الكثير من الهراء على غرار (حاول ثانية) و(ربما العيب فيك) و(بعض التعاون فى البيت) .. إلخ ..

لكنه لم يكن على استعداد لسماع شىء من هذا .. والسبب ؟.. ليس لكونه جرب هذا كله وفشل ، بل لأنه دكتاتور بطبعه .. دكتاتور وقد اعتاد على أن ينال أكثر من النساء وهذا التحول شىء لا يقبله ولا يفهمه ..

إن التجربة الآن مثيرة بحق .. شخصية دكتاتورية تصطدم بشخصية دكتاتورية .. (نيرون) يواجه (كاليجولا) ، فإن لم ينحن أحدهما أو يتراجع للوراء فلسوف تدوى الرعود وتتوهج البروق .. ونحن نعرف أن أحدهما لن ينحنى ..

بعد أيام جاء يخبرنى أنها صارت تغادر البيت كثيرًا من دون إذنه ، وإنها لم تعد تفعل أى شىء فى البيت على الإطلاق ..

قال لى وهو يتحسس ذقنه النامية المنكوشة كالمجاذيب :

ـ « أعتقد أننى سأطلقها .. لقد صار هذا هو المخرج الوحيد .. »

كنت أنا مذهولاً .. أتراه الحسد ؟.. أترانى حسدت هذين الزوجين السعيدين على حياة هادئة مستقرة لم أنعم بها ؟.. كيف أفعل ذلك وأنا وحيد باختيارى ؟..

لكن كيف يمكن أن تفسر هذه التغيرات الدرامية فى هذا الوقت الوجيز ؟..

منذ ثلاثة أشهر كانت هى تلك الوديعة التى لا تبغى فى العالم شيئًا إلا راحة زوجها واستغراقه فى عمله .. إن لديهما ثلاثة أطفال مزعجين من طراز (جانبو ذيل القط ـ ساكبو الحبر) إياه .. ويمكن لهؤلاء الثلاثة أن يحيلوا حياته جحيمًا لولا أنها تتكفل بكل شىء وتقف كالسد تمنعهم من تدمير حياة أبيهم ..

كيف تغير كل هذا ومتى ؟

قلت له بصوت مبحوح :

ـ « هل يوجد حل آخر ؟ »

نظر لى وابتلع ريقه ثم قال :

ـ « إلا إذا ... »

عندها عرفت الإجابة ..

ـ « إلا إذا كلمتها .. إنها تثق بك كثيرًا !! »

صحت فى غيظ :

ـ « يا سلام !.. تثق بى وهى لم ترنى إلا لدقائق وفمى ملىء بالطعام ! »

ـ « أنا حكيت لها كثيرًا عنك .. أعتقد أنها ستصغى .. »

وهكذا وجدت أننى أتحرك فى تلك الدوامة نحو البالوعة المعروفة باسم (الحاجة إلى عمل شىء ما) ..

* * *

11ـ المدام غاضبة

قلت لها :

ـ « لا أعرف سبب ما حدث لكنى أرجو أن يتوقف .. »

كانت عبارات عميقة كما ترى ..

وكانت هى جالسة فى النادى فى ضوء الشمس واضعة على عينيها نظارة سوداء ، وهى تتسلى برسم شىء ما فى كراسة صغيرة .. الأمر الذى جعلنى أتذكر دور (صديق البطل) فى الأفلام العربية القديمة .. الرجل الذى لا دور له ولا هدف فى الحياة سوى إصلاح ذات البين ، حتى لتشعر أنه بلا بيت أو عمل أو مشاكل ..

قالت فى لا مبالاة :

ـ « السبب واضح .. لقد تحملته خمسة عشر عامًا وحان وقت إغلاق هذا الباب .. إذا أراد أن يلعب بقواعدى فيها ورحبت ، وإلا فهو الطلاق .. »

ـ « وهل يفيق الناس فجأة بلا مبرر بعد خمسة عشر عامًا وبلا بوادر مسبقة ..؟ »

ـ « لو اكتشف السجين انه خلف القضبان بعد خمسة عشر عامًا ، فلا تثريب عليه إن هو حاول الفرار .. »

ظللت أفكر .. قلت لها كلامًا كثيرًا عن مسئولية البيت المشتركة وسنة الحياة .. كلامًا كثيرًا تعرفه أنت ولربما كان لديك أفضل منه ، لكن كان يجب أن أقوله .. فى الحقيقة ـ برغم أننى أعيش على هامش الحياة ـ فأنا أؤمن أن سبب وجودك هو أن تأتى للعالم بمن هم أفضل منك على المستوى الدينى والعلمى والسلوكى والصحى والشكلى .. الترقى هو سنة الكون ، ومن الحمق أن نلتفت لأنفسنا أكثر من اللازم .. تأمل سنة الحياة ... ماذا يظفر به ذكر حشرة فرس النبى الذى ما إن يتم التلقيح حتى يفقد عنقه ، ويتم استخدام لحمه لتغذية الصغار ؟.. لا أطالب بشىء كهذا فى عالم الواقع لكنه يريك السنّة العملية التى تجرى عليها الطبيعة .. الجيل الجديد هو الأهم وعلينا أن ننسى أنفسنا بعض الوقت من أجله ..

صارحتها بهذا كله ، فكان ردها عدائيًا كما توقعت ..

ـ « لا مانع من أن يصير أطفالى أفضل وأتمتع بحياتى فى الآن ذاته .. »

ـ « لكنك تتحدثين عن الطلاق .. عن هدم ... »

ثم بحثت عن كلمة مناسبة .. فأردفت :

ـ « عن هدم وحدة التفريخ هذه .. »

ـ « فقط إذا أصر على لعب دور (شهريار) وهو مصر على هذا .. »

ابتسمت برغمى لأنى تخيلت (إبراهيم) جالسًا على الطنافس بعمامة كبيرة ، وخلفه (مسرور) السياف ..

قلت لها إننى لا أعرف ما يقال بعد هذا .. لكنى رجوتها أن تؤجل التفكير بعض الوقت ..

نصحتها كذلك بأن تدون مطالبها فى ورقة .. رقم واحد كذا .. رقم اثنين كذا .. هكذا يمكنها أن ترتب أفكارها .. أحيانًا حينما نرتب ما نريد على الورق يبدو لنا الأمر أهون أو أسخف مما كنا نحسبه .. وعدتنى بذلك ..

بعد قليل رأيت ثلاث سيدات قادمات فلوحت لهن بيدها ، وهتفت :

ـ « يجب أن تقابل صديقاتى .. »

نهضت وأحكمت أزرار سترتى كما يفعلون فى السينما ، وهززت رأسى برقة .. إننى أبدو رائعًا حينما تلتمع صلعتى فى ضوء الشمس ..

ـ « هذه (صافى) ... (ماهى) .. (مى) ... »

طبعًا هذه أسماء تدليل على ما يبدو .. على أن صديقاتها لم يكن منظرهن مريحًا جدًا .. لمسة عدائية لا شك فيها .. هن من الطراز الذى لا يلتهم أذنه إلا لأنها بعيدة عن أسنانه .. وكان اللقاء باردًا كالثلج سمجًا كمذاق عصير (الجريب فروت) .. وشعرت بمعدتى تتقلص ..

ـ « دكتور (رفعت) صديق الأسرة يا فتيات .. »

نظرت لى إحداهن من أعلى لأسفل ، ثم مدت يدها فى حقيبتها لتخرج علبة تبغ ، ورشقت لفافة بين شفتيها ، وقالت :

ـ « تشرفنا .. »

بينما قالت أخرى تضع طنًا من المساحيق على وجهها كأنها بطلة مسرح (كابوكى) يابانى :

ـ « كلهم أطباء هذه الأيام .. »

جلست لدقيقة وأنا أشعر برغبة عارمة فى الفرار ، بينما انشغلت امرأتان فى الثرثرة الهامسة ، تصحبها ضحكات عالية تذكرنى بضحكات الجالسين فى مقهى (بعرة) عندما ينجح أحدهم فى وضع الآخر فى خانة اليك ..

قلت شيئًا ما عن الوقت الذى حان للانصراف .. ثم نهضت دون أن أسمع الرد ..

وغادرت النادى وأنا أفكر .. لابد أنها اشتركت فيه مؤخرًا .. لم تكن قط من رواد الأندية ... وهؤلاء النسوة ؟.. أعتقد أنهن من الطراز ذاته ، ولربما كانت إحداهن هى التى أدخلت أفكار الثورة على الرجل فى رأسها ..

* * *

كانت الأحداث تدور بسرعة ..

يبدو أن مشادات عنيفة تحدث ، وأن الجيران صاروا يتدخلون كثيرًا ...

السيدة قد تركت البيت لا لتقيم عند أهلها ، بل عند صديقة لها ، وهو ما بدا لى غريبًا .. على أن أكثر ما أثار حزنى هو (البامية) .. نعم .. لا مزاح هنا .. لن أذوق ثانية تلك البامية الرائعة التى تطهوها .. من الغريب أنه لا يوجد سبيل فى العالم لتذوق البامية لدى رجل غير متزوج لا يجيد طهوها ..

كان (إبراهيم) قد تحول إلى هيكل عظمى .. وصار أداؤه فى العمل مثيرًا للشفقة إلى أن طلب إجازة ، ويبدو أنه أغلق عيادته الخاصة لفترة ..

وجلست أقرأ عليه قائمة مطالبها :

ـ « أولاً .. الطهى والغسيل ليسا مسئوليتى .. عليك أن تعنى بنفسك فى هذا الصدد .. ثانيًا .. يجب أن تترك دخل البيت معى لأقوم بترتيب المصروفات كما يتراءى لى .. ثالثًا .. دخولى وخروجى ليسا من شأنك .. أنا إنسانة ناضجة بالغة وأستطيع العناية بنفسى .. رابعًا .. يجب أن تنام فى غرفة أخرى لأن شخيرك مزعج فعلاً .. خامسًا .. »

ثم نظرت له ونظر لى ..

سألنى فى تعب :

ـ « ما رأيك ؟ »

قلت وأنا أتحاشى عينيه :

ـ « الأمر يشبه وثيقة استسلام (ألمانيا) للحلفاء بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى .. الوثيقة التى تم توقيعها فى عربة قطار .. »

ـ « وماذا حدث بعدها ؟ »

ـ « لم تنس ألمانيا هذه الإهانة وسرعان ما أفرزت رجلاً حانقًا شبه مجنون اسمه (أدولف هتلر) .. لقد حارب بضراوة إلى أن

استطاع أن يجعل فرنسا توقع وثيقة استلامها فى ذات عربة القطار ! »

ـ « هل تشعر بأننى (ألمانيا) ؟ »

ـ « لا أعرف .. لكنى متأكد من أن زوجتك لم تنتصر فى حرب ما .. لا يوجد مبرر لهذا كله .. »

وساد صمت ثقيل ..

فى النهاية قلت له :

ـ « أنت تطيل عذابك .. أكره ما سأقول لكنى بالفعل لا أرى سبيلاً آخر إلا الانفصال .. »

نظر لى بعينين حمراوين فارغتين ، فقلت :

ـ « هل ترى حلاً آخر ؟ »

قال :

ـ « ونهدم هذا البيت بهذه السهولة ؟ »

ـ « لقد حاولنا كثيرًا .. يعلم الله أننا حاولنا كثيرًا .. لكنها مصرة .. لا أعلم أى شيطان سيطر على تفكيرها لكن لم يعد من حل آخر .. إن الوضع مهين لك فعلاً .. »

ـ « والأطفال ..؟ »

ـ « سيفهمون عندما يكبرون .. فقط أحتفظ بهذه الورقة كى تعفيك من الشرح ! »

ظل شاردًا لفترة ، وأدركت أنه عاجز بالفعل عن اتخاذ قرار ..

لا أعرف السبب .. إن الأمور واضحة كالشمس الآن .. يبدو أن الأحداث دارت أسرع من اللازم بالنسبة له .. وعدت أسأله :

ـ « هل الأطفال عندك ؟ »

ـ « عند والدتى .. لا أستطيع فهم ألغاز مثل تثبيت أزرار القميص أو إلباسهم الثياب الداخلية بحيث تكون الخياطة للخارج .. و ... »

ـ « خطأ .. الخياطة للداخل .. »

ـ « هذا يدل على أنك أحمق مثلى .. تقول زوجتى إن الخياطة للداخل تحتك بجلد الأطفال الرقيق .. دعك من معجزة الطهى .. و .. الخلاصة إنهم عند والدتى الآن .. إنها مسنة لا تقدر على العناية بهذه الشياطين ؛ لذا وجدت امرأة تساعدها .. »

اقترحت عليه أن يقيم عند والدته بدوره لأنه طفل كبير هو الآخر .. أنا متأكد من أن خياطة ثيابه الداخلية للداخل لا للخارج .. يبدو بحاجة ماسة لمن يعنى به ..

لكنه أصر على أنه بحاجة إلى الوحدة والتفكير ...

فارقته وأنا أشعر بما نشعر به عند العودة من عزاء صديق ... لقد كنت فى سرادق عزاء ذلك البيت الذى أحببته ، ومن جديد أشعر بأننى كنت ذكيًّا عندما لم أتزوج .. جهد بناء القصور على الرمال ثم مراقبتها حينما يزحف المد ليطيح بها . جهد دحرجة الصخرة لأعلى ثم مراقبتها تهوى من جديد كما كان الخواجة (سيزيف) يفعل .. والسبب ؟.. الكارثة هى أنك لا تعرف السبب ..

إنها بعض آلام الوحدة لكنها تزول سريعًا ..

بعض الناس وجد صديقًا .. بعضهم عاش مع ذكرى .. بعضهم عاش مع مرآة .. بعضهم عاش مع كتاب .. بعضهم عاش مع أشباح ...

لكن النتيجة واحدة ..

* * *

12- الفقيـــد ..

قال رجل المختبر الجنائى وهو يلتقط صورة أخرى للجثة :

- « يبدو لى فى حال سيئة بالفعل .. »

قلت وأنا أقف على مسافة معقولة كى لا أفسد عمله :

- « لم يحدث هذا نتيجة الموت .. لقد كان فى أسوأ حال منذ فترة .. الحقيقة أنه لم يكن يعرف كيف يعد لنفسه كوبًا من الشاى ، وقد رحلت من كانت تعرف .. هذا الرجل كان متأهبًا تمامًا للموت جوعًا .. »

ضحك الرجل ولفافة التبغ فى فمه مما جعلها تهتز لا أكثر ، وقال :

- « لا أحد يموت جوعًا لأنه لا يعرف كيف يعد الشاى .. إن المطاعم فى كل مكان والفقيد كان يملك المال .. »

قالها وهو يتأمل الغرفة ذات الأثاث الثمين .. هناك جهازا تسجيل من طراز فاخر .. وفى هذا الوقت من أوائل السبعينات لم يكن هذا الجهاز متاحًا للجميع ، كما أن هناك جهاز فيديو من الطراز القديم الذى يشبه التوابيت فى الحجم والصوت والمحتوى .. الفراش نفسه يبدو أنه كان فى أفضل حال قبل أن يحتله هذا المشهد الرهيب ..

لقد رأيت الكثير من الموت فى حياتى .. الكثير جدًا داخل المهنة وخارجها ، ويبدو أننى تبلدت تمامًا لهذا المظهر .. بل صرت أتوقع تمامًا كيف سأبدو وأنا ميت ، لكن مشهد (إبراهيم) الذى كان مليئًا بالحيوية وقد صار هذه الجثة مفتوحة العينين شاخصة البصر الراقدة بالمنامة على الفراش .. هذا المشهد جعل صوتى يختنق ..

سألت الرجل وأنا أبعد نظرى عن المشهد :

- « متى حدث هذا فى رأيك ؟ »

مط شفته السفلى بمعنى عدم اليقين وقال :

- « ربمـا بعـد منتصف الليـل .. على الأرجح سيكون هذا دقيقًا .. »

- « والسبب ؟ »

- « حتى هذه اللحظة لا أرى ما يريب .. لكنى كنت أتوقع منك أن تجيب عن هذا السؤال ... يبدو الأمر لى طبيعيًا .. إن نوبات القلب تحدث كما تعلم .. »

طبعًا أعلم . ليس هناك من هو أكثر علمًا منى بهذا الموضوع بالذات .. ما زلت لا أفهم كيف يعيش الناس حياتهم من دون

نوبات قلبية .. بالنسبة لى صار هذا أسلوب حياة .. أستيقظ من النوم .. أمر بنوبات ضيق الشرايين التاجية إلى أن يأتى موعد النوم فأنام راضيًا عن إنجاز اليوم ..

لكن .. (إبراهيم) ؟

فى هذا الوقت بالذات ؟

* * *

كلا .. لست أنا من اكتشف الجثة ، فعلاقتى بـ (إبراهيم) لم تبلغ هذا الحد ولا أتردد عليه يوميًّا ..

الحكاية هى أن لـ (إبراهيم) جارًا هو صديق مشترك بيننا ، وقد اكتشفت الجثة تلك المرأة التى تعنى بأطفال (إبراهيم) المقيمين عند والدته ، والتى يبدو أنها صارت تعنى بالبيتين فى الوقت ذاته وكان معها المفتاح ..

جاء الجار على صوت صراخها الذى ذكره بصفارة قطار الصعيد ، فرأى المنظر .. عاد إلى شقته واتصل برقمين : رجال الشرطة والعبد لله .. وهكذا وصل الاثنان إلى مكان الحادث فى الآن ذاته .. وقد عرفنى أحدهم فسمح لى بأن أقف أثناء الفحص بشرط ألا أمس شيئًا ..

كنت فى حال سيئة لأن هذا السيناريو البائس هو آخر شىء جال بذهنى .. من الصعب أن تنتهى المأساة بمأساة أخرى .. أن يفلس الرجل فيكون الحل هو أن يدهمه القطار .. لكن هذا ما حدث ..

كنا فى الشتاء لهذا كنت مدثرًا فى ثياب ثقيلة ، لكنى ظللت اشعر بالبرد .

بحثت عن مصدر هذا الشعور فوجدت أن شيش النافذة مفتوح وموارب .. لكنه راح يهتز ... بدا لى هذا غريبًا بعض الشىء .. خاصة أن النافذة تقع مباشرة فوق الفراش .. أى أن الهواء البارد القادم منها لابد أن يجمد من يرقد على الفراش ..

وسألت صديقنا المشترك الذى وقف بعيدًا :

ـ « هل فتحت هذه النافذة لدى قدومك ؟ »

هز رأسه أن لا وأردف :

ـ « هل عندما تجد جثة يخطر ببالك أن تفتح النافذة أولاً قبل أن تصرخ وتطلب النجدة ؟ »

بدا لى هذا منطقيًّا فسألته :

ـ « وتلك المربية أو الخادمة .. هل فتحتها ؟ »

قال بنفس اللهجة :

ـ « هل عندما تجد المرأة جثة تفتح النافذة أولاً ؟ »

شعرت بخجل لغبائى المطبق وابتلعت ما يجول بذهنى من أفكار ..

كان رجال المختبر يقومون بعملهم بسرعة ، وإن ساد جو عام من الاقتناع بأن الوفاة طبيعية .. ورأيت أن أدراج (الشوفنيرة) مفتوحة .. لقد فتحها احدهم ولم يغلقها .. دنوت منها وألقيت نظرة .. إن بها قمصانًا مكوية ومطبقة بعناية .. يبدو أن هذا عمل الكواء ما دامت الزوجة قد رحلت منذ فترة ..

هناك جوارب .. هناك ... ما هذا ؟

ومددت يدى لأمسك بقلادة غريبة الشكل ...

قلادة يبدو عليها القدم ... لا أعتقد أنها ثمينة على الإطلاق .. لكنى استطعت أن أميز تمثالاً صغيرًا لوحش فوق ظهره وحش عجيب ذو ثلاثة رءوس ... لم استطع التدقيق أكثر لأن الظروف لا تسمح ..

ما هذا بالضبط ؟

عندى حساسية معينة لهذه القلائد الغريبة .. إن لها دائمًا قصة ما وهذه القصة على الأرجح لا تبعث الراحة فى النفس ...

نظرت حولى فلم أر أحدًا ينظر لى .. هكذا دسست هذه القلادة فى جيبى ..

بعد ثوان فطنت لما قمت به .. هل تعتبر سرقة ؟.. لا أعتقد أنها ثمينة على الإطلاق .. هل يعتبر هذا إخفاء أدلة ؟.. لا أظن .. من الواضح أن رجال الشرطة لم يروا لها أهمية ما لأنهم فرغوا من فحص هذا الجزء .. لكن هذا لن يغير الحقيقة : هذا الشىء لا يخصنى وليس من حقى أخذه ...

كدت أعيدها للدرج لولا أن وجدت اليد الصارمة لأحد الضباط على كتفى يطلب منى المغادرة ..

لا بأس .. سأعرف كيف أعيدها للزوجة مع قصة سخيفة عن كيف وجدت هذه القلادة ملقاة على باب الشقة فوضعتها فى جيبى لعلها تهمهم .. هل هى لكم ؟.. جميل .. جميل .. إذن خذيها ولحسن الحظ أننى احتفظت بها ..

هكذا غادرت دار (إبراهيم) عالمًا أنها غالبًا المرة الأخيرة ..

وفى جيبى كنت اشعر بثقل هذه القلادة .. إنها أثقل من مجموع أجزائها ولا شك فى هذا .. القيمة المعنوية للشىء تزيده ثقلاً .. كما يتحدث المصورون عن الكرة البيضاء التى تزن أكثر من الكرة السوداء المماثلة لها فى الحجم فى الصور الفوتوغرافية ..

ما هى هذه القلادة ؟.. لا يمكن أن نعتبرها مجرد ذوق أنثوى غريب وإلا فهذه السيدة جديرة بمعرفتها حقًا ..

* * *

فى دارى جلست على مكتبى فأضأت الأباجورة ورحت أتأمل هذه القلادة ..

إنها من معدن يشبه الفضة .. لكن علامات الصدأ والقدم واضحة جدًا .. وفى طرفها يتدلى تمثال بحجم علبة التبغ .. التمثال يصور وحشًا ما ذا ثلاثة رءوس .. رأس يشبه الكبش ورأس يشبه الثور أما الثالث فلا أعرف عما يعبر لكنه مخيف . الوحش يمتطى ظهر شىء يذكرك بالأسد .. لكنه أسد أشورى من تلك الأسود الملتحية ذات اللحية المضفرة .. أما الوحش ذاته فله أقدام إوزة .. والأغرب أن له ذيل ثعبان ..

وحش غريب ، لكنى اقسم على أنه تمثال لشيطان ما على غرار (بلفاجور) و(عشتار) ... إلخ ..

بحثت عن تلك الموسوعة الكئيبة التى اشتريتها من أمريكا ذات مرة وفتحت الصفحات المصقولة التى تظهر رسوم الشياطين كما كانوا يتخيلونها قديمًا .. مجموعة من الصور المخيفة بعضها

ساذج وبعضها يوحى بالقدم .. لكن لا .. هذا الموديل من الشياطين جديد تمامًا ..

ولكن كيف حصل عليه الزوجان ؟..

هل تجيب الزوجة عن سؤال كهذا ؟

حدسى يخبرنى بأن هذا لن يحدث ..

* * *

13- فيمينيزم ..

قالت لى (عفاف) :

- « إنها نهاية مؤسية ، لكنه هو من اختارها .. »

كانت كلمات رقيقة كما ترى .. وقد رحت أرشف القهوة وأنا أفكر فى إنهاء هذه الجلسة سريعًا .. لسبب ما صارت هذه السيدة تذكرنى بسحلية الإجوانا .. فقط لو أن الإجوانا شرسة إلى هذا الحد ..

سألتها وأنا أضع القدح :

- « هل ستعودين إلى الدار ؟ »

قالت وهى تضع ساقًا على ساق :

- « لا أعتقد .. لم يعد هناك ما يربطنى بها .. »

- « والأطفال ؟.. المفترض أن تعودى لتكوين وحدة تفريخ جديدة .. آسف على التعبير لكننى لا أرى الأمور إلا فى هذا الضوء .. »

قالت فى برود :

- « إنهم سعداء عند جدتهم .. أعتقد أن الأمور تم ترتيبها بشكل مناسب للجميع الآن !.. »

- « لكن لابد للأطفال من أم .. »

صاحت بعصبية :

- « د . (رفعت) .. الشأن شأنى من فضلك .. أنت لن تعيش حياتى ! »

ساد الصمت .. ومن جديد لم أجد ما يقال .. هذه المرأة لا تمر بحالة Feminism بل هى قد جنت تمامًا على الأرجح .. ليس من المجدى أن اناقش معها شيئًا ..

قلت لها آخر سؤال عندى :

- « ونفقات الحياة ؟.. إن معاش ... »

قالت باسمة :

- « إن لديه مدخرات لا بأس بها .. لا تنس أنه كان يكسب جيدًا .. لابد من ثمن لكل هذا الوقت الذى كان يقضيه خارج البيت .. وهذا الثمن فى المصرف الآن وسوف أحصل عليه بعد إنهاء الإجراءات القانونية .. ! »

هكذا هززت رأسى ونهضت عازمًا على الفرار ..

فقط لأصطدم بتلك المرأة الممتلئة قليلاً .. على قدر من الجمال هى لكن عدوانيتها لا تخفى على أحد ، ولربما تضفى عليها عنصر جاذبية ما .. كل الأفاعى والنمور رائعة الجمال .. كلنا يعرف هذا ..

كنت قد قابلتها من قبل ، فتكفلت المدعوة (عفاف) بتقديمى لها :

ـ « دكتور (رفعت) .. صديقتى (ماهى) التى تفضلت بمنحى المأوى ! »

هززت رأسى بما معناه أننا التقينا من قبل ، فقالت (ماهى) هذه :

ـ « أنا سعيدة بأنكما متفاهمان ، لكنى أرجو ألا تحكم علينا بهذه السرعة يا دكتور (رفعت) .. أنت رجل ولن تفهم هذه الأمور ببساطة .. النقطة هى أننا نحن النساء ظللنا نتحملكم منذ فجر التاريخ .. هناك لحظة انفجار ما لا بد أن تأتى .. بالنسبة لى هذه اللحظة جاءت منذ عشر سنوات .. بالنسبة لـ (فافى) جاءت اللحظة منذ أشهر .. »

طبعًا (فافى) هى (عفاف) .. لا شك فى هذا ..

قلت لها فى ارتباك :

ـ « إن الرجال أطفال كبار .. لكن سحر المرأة يكمن فى قدرتها على احتواء هذا الطفل .. إنها تأخذ كل شىء برفق وحنكة وتترك الرجل يعتقد أنه المنتصر .. (سميراميس) الملكة الأشورية جعلت زوجها يتنازل لها عن العرش ثم أعدمته .. لكنه ظل سعيدًا حتى اللحظة الأخيرة .. لابد أن رأسه المقطوع كان يبتسم فى بلاهة .. »

ضحكت مثل معلمى وكالة البلح وقالت :

ـ « هذه هى العبارات التى يقولها الرجال منذ فجر التاريخ والتى ظللنا ننخدع بها .. لكن الصدفة هى أنك قابلت نسوة أذكى ممن قابلتهن من قبل .. هذا لسوء حظك .. »

ثم مدت يدها تصافحنى بقبضة قوية وقالت :

ـ « تعال إلى النادى الصغير الذى كوناه فى المعادى .. نلتقى هناك فى الثامنة مساء كل ثلاثاء .. هناك يمكنك أن تسمع آراءنا وتناقشها إذا أردت .. إن العنوان هو ... »

وناولتنى بطاقة صغيرة بها عنوان وأرقام هاتف ..

كان اللقاء سيئًا بحق .. فهى لا تبذل أى جهد من أجل الرقة أو المجاملة .. لهذا وجدت أن إنهاء الزيارة خير سبيل .. قلت كلامًا على غرار :

ـ « ففف .. يى .. شش ... نن .. »

ثم اتجهت إلى الباب ففتحته .. للمرة الأولى أتذكر مكان الباب فى بيت أزوره لأول مرة .. لكن الحافز كان قويًا ..

وبعد دقائق كنت فى سيارتى أنطلق على طريق الكورنيش ...

لماذا لم أتحدث عن القلادة التى أخذتها ؟

لا أعرف .. شعرت بأنه من المفيد لى أن أبقيها معى بعض الوقت أكثر من هذا ..

* * *

فى السابعة مساء وجدت أن اليوم هو الثلاثاء ؛ لذا اتجهت إلى شقة (عزت) وقرعت الباب عدة مرات ..

فتح الباب مذعورًا كالعادة ، فرسمت ضحكة مطمئنة عاتية على وجهى وقلت له :

ـ « هل ترغب فى الخروج ؟ »

ـ « لا أدرى .. لقد استيقظت حالاً و ... »

ـ « إذن ارتد ثيابك واحلق ذقنك .. إننا سنرى الليلة مجموعة من النساء الحسناوات ! »

كان متشككًا ومعه حق .. بعد كل ما رآه معى لم يعد متأكدًا من أى شىء يتعلق بى ، لكنه تعلم كذلك ألا يجادل كثيرًا ..

هكذا ارتدى أفضل ثياب عنده .. أعنى أنه صار كالمهرج .. وصفف شعره ، ثم اشار لى بمعنى أنه مستعد ..

هكذا انطلقت بسيارتى نحو المعادى .. قلت له ونحن فى الطريق :

ـ « سوف تسمع كلامًا غريبًا .. لكنى أرغب فى ألا تجادل .. اكتف بالصمت والإنصات .. »

ـ « إلى أين نحن ذاهبون بالضبط ؟ »

ـ « إلى ناد نسائى .. وأنا لا أرغب فى أن أكون هناك وحدى »

قال وهو يضحك فى بلاهة :

ـ « مثل أندية الروتارى والليونز ؟.. أنا قد عرضت تماثيلى فى تلك الأماكن .. سوف نقابل الكثير من مدام (نازك) ومدام (إنجى) ونرى الكثير من الشراشف اليدوية التى خصص ريعها للأيتام .. »

قلت ضاحكًا وأنا أتفادى سيارة قريبة :

ـ « لا هذا ولا ذاك .. سوف نحضر اجتماعًا خصص لسب الرجال ..!.. »

ـ « أفهم هذا الطراز .. الحركة النسائية التى تعتبر الرجل أسوأ شىء عرفته البشرية ... »

ـ « تقريبًا .. لكن هذه الجمعية تملك قوة تأثير غير عادية .. يشبه الأمر دينًا جديدًا يعتنقه المرء فيصير متعصبًا .. بل هو أقرب إلى التنويم المغناطيسى .. وأنا أريد أن أفهم .. ما نوع المعاملة التى تجرى هنالك .. لو كان الأمر كما أظن فلسوف أبلغ الشرطة .. »

ـ « شرطة ؟ »

ضغطت على الفرملة فى عصبية فارتطم رأسه بالتابلوه ، وقلت :

ـ « نعم .. لقد فقدت صديقًا فى ظروف مؤسية بسبب هذه الجمعية ، ورأيت بيتًا ناجحًا يتهدم .. لا أحمل لهذه الجمعية أية مودة .. لو اتضح أن الأمر نوع من غسيل المخ فلسوف أعرف كيف أوقف هذا النشاط .. »

توتر وراح يرقب الطريق فى قلق ..

* * *

لم تكن الرجلين الوحيدين كما تمنيت .. كان هناك ثلاثة رجال وشاب يقول إنه صحفى .. وقد وجدنا منضدة بعيدة جلسنا إليها (مزجر الكلب) بعيدًا عن المناضد الأخرى .. كانت هناك منصة صغيرة ومجموعة من المناضد المتناثرة .. على كل منضدة شرشف أحمر اللون ودورق ماء بلورى وكوبان .. وكان هناك ساق ذكر يسألك عما ترغب فى شربه .. وأدركت أنهن استخدمن رجلاً لأسباب واضحة طبعًا ، ودعم استنتاجى هذا أنهن كن يعاملنه بغلظة وقرف شديدين ..

أدركت كذلك أن هذه القاعة هى مدخل الفيلا وقد تمت إعادة ترتيبها لتبدو أقرب إلى قاعة اجتماعات .. وقد درت بعينى فى الموجودات فأدركت أنهن جميعًا يرمقننا بفضول . هذا ليس غريبًا .. الفتاة الوحيدة التى تجلس فى محاضرة كل روادها ذكور

سوف تنال ذات العدد من النظرات الفضولية .. أكثر النظرات كان عدوانيًا كذلك .. معظم الحاضرات كن فى العقد الرابع أو الخامس مع ذات لمسة الجمال الواضحة .. وإن التقت عيناى بعينى الزوجة (عفاف) فهزت رأسها فى ثقة وأناقة .. بعد قليل التقت عيناى بتلك الـ (ماهى) فضحكت فى وحشية ..

بعد قليل صعدت إلى المنبر سيدة فى الخمسين من العمر ، وقالت فى لهجة مرحة :

ـ « إن العدد يتزايد وهذا يسرنى .. »

ثم نظرت إلى المنضدة التى جلسنا إليها ، وقالت :

ـ « بل إن (بعضهم) معنا .. ويبدو أنهم اقتنعوا بأفكارنا ! »

كان هذا أقوى منى .. الدعابة التى لن أفوتها مهما حدث ؛ لذا قلت فى برود :

ـ « لسنا (هم) بل نحن (هن) .. بعد فترة من رفض الذكر تتحول المرأة إلى رجل .. هذا ما حدث لنا ! »

لم يضحك أحد .. وقالت المرأة متجاهلة ما قلت :

ـ « فى كل يوم تكتشف نساء أخريات الخدعة الكبرى التى يمارسها الرجل عليهن .. إنه ينال كل شىء .. وهى ؟.. هى مجرد خادمة فى البيت لا تنال أجرًا كالخادمة .. لماذا ...؟ »

لن أطيل عليك ..

لقد راحت تسرد ذات الحجج والبراهين التى نعرفها جميعًا .. بعضها منطقى ويروق لى ، لكن أكثرها يقوم على رفض الذكر بالكامل .. إنها تحلم بمجتمع يصير فيه الرجل مجرد ظل .. مجتمع (أمازون) حقيقى لا فائدة فيه للرجال إلا للإنجاب .. بعدها يعودون إلى مرتبة الخدم ..

هب أحد الرجال الجالسين معنا غاضبًا وراح يجادل ..

ونظر لى (عزت) مذعورًا يسألنى الإذن فى الرد فأشرت له أن يهمد قليلاً .. وظللت كما أنا مسترخيًا فى مقعدى عاقدًا ذراعى على صدرى ..

هناك من يحبون الجدل لمجرد الجدل .. من الواضح أن هذه المجموعة متعصبة .. ويجب أن أعترف أننى طيلة حياتى الطويلة لم أر قط شخصًا يقتنع برأى شخص آخر بعد أى جدال . أتمنى لو وجدت الشخص الذى يقول فى تواضع : معك حق .. لقد كنت مخطئًا ..

لكننا نعتقد أن آراءنا جزء من كرامتنا .. جزء من وجودنا .. وهذا يقودنا إلى كوارث طيلة الوقت .. تذكر أن كفار قريش كانوا يعرفون أن الرسول ﷺ كان نبيًا حقًا لكن أكثرهم لم يشأ الاعتراف بالخطأ .. وبعضهم استكبر أن يأتى نبى من بنى (هاشم) ... فهل نحن حقًا بعيدون عن كفار قريش إلى هذا الحد ؟

هكذا رحت أتابع المناقشة عالمًا أنها من الطراز الذى يحاول فيه كل طرف إقناع الآخر بالغباء .. وقلت لنفسى لماذا لا يخرس هذا الأخ ؟.. أنا لم آت لأستمع إليه ..

بعد ساعة بدا أن الاجتماع انتهى .. فنهضت شاعرًا بأننى يجب أن أكره نفسى وأحتقرها للأبد لأننى رجل ..

لم أسمع شيئًا يريب .. سمعت ما توقعته لكننى كنت آمل أن تكون الأمور أسوأ ...

على باب هذا النادى ـ وأنا أحلم باستنشاق الهواء الطلق ـ قابلت (عفاف) .. سألتنى فى مرح :

ـ « كيف الحال ؟.. هل راقت لك آراؤنا ؟ »

قلت وأنا أستند على ذراع (عزت) :

ـ « جدًا .. إننى أكاد أبكى تأثرًا .. لو كنت تعرفين طبيبًا يحول الرجال إلى نساء فلتخبرينى بعنوانه .. »

قالت فى خبث :

ـ « المفترض أن هذه المعلومات معروفة لك .. لكنك ستكون امرأة غير جذابة على الإطلاق .. »

ثم سألتنى بلهجة عارضة :

ـ « بالمناسبة .. قلت إنك كنت فى الدار عندما جاء رجال الشرطة .. هل أخذوا شيئًا من هناك ؟ »

ـ « مثل ماذا ؟ »

قالت بذات اللهجة العارضة :

ـ « أى شىء .. شىء من محتويات (الشوفنيرة) مثلاً ...؟ »

نظرت لها فى حيرة وقررت أن أتظاهر بالغباء ..

قلت لها باسمًا :

ـ « لا .. لو فعلوا هذا لعرفت .. »

ثم قررت أن أدس طعمًا ما فأضفت :

ـ « كانت هناك قلادة .. قلادة لا أهمية لها .. أعتقد أنها كانت ملقاة على السجادة .. لا أذكر أين وضعتها .. لابد أنها فقدت فى عملية التنظيف .. »

نظرت لى نظرة ثابتة .. عيناها تقولان بوضوح تام : « أنت كذاب أيها السافل .. إنها معك ..! » .. أما أنا فرددت عليها بنظرة من طراز : « نعم .. أنا أكذب لكن كيف يمكنك إثبات

العكس ؟ » .. كذاب .. نعم .. أنا كذاب .. لص .. نعم .. أنا لص .. لكنى سرقت مجرمة .. لماذا لم تتوقف أسطورة (على بابا) كثيرًا عند موضوع سرقة مجوهرات اللصوص التى قام بها البطل (على بابا) ؟..

قالت وهى تصافحنى بمودة مفاجئة :

ـ « سوف نلتقى ثانية يا دكتور .. ثق بهذا .. »

ـ « هذا ما أتمناه ! »

وفى السيارة سألنى (عزت) عن معنى هذا الذى رأيناه .. قال لى :

ـ « فى رأيى أنهن مجموعة من النساء المخبولات لا أكثر .. »

قلت وأنا أدير المحرك :

ـ « وفى رأيى أنهن لسن مخبولات إلى الحد الذى يوحين به .. وهذا ما يثير قلقى .. »

* * *

14 ـ إلى البالوعـــة ..

عندما يدق الهاتف وأنت نائم تشعر بأنه يأتى من أعمـاق سرداب سحيق بعيد .. كأنه يأتى من عصور ما قبل التاريخ ، ومن حفـرة تركها القمر وهو ينطلق للفضاء من مكانه فى المحيط الهادى ..

نهضت لأرد وأنا أترنح .. البلاط بارد جدًا على قدمى الدافئتين ..

كان صوت امرأة يسألنى :

ـ « السابعة صباحًا !.. أما زلت نائمًا ؟ »

قلت لها وأنا لا اعرف يقينًا من أنا :

ـ « لأننى أنام فى الخامسـة صباحًا .. أى أن الأمـر يشبه أن أوقظك فى الثانية صباحًا .. و ... من أنت ؟ »

ضحكت فى ثقة وقالت :

ـ « على فكرة لست ممن ينمن مبكرًا .. أنا (عفاف) .. »

(عفاف) ؟.. لا أعرف واحدة بهذا الاسـ ... آه .. الآن أستعيد جو المشاجرات الزوجية والبامية وتلك الندوة الشنيعة .. قلت لها :

ـ « مدام (عفاف) .. أنا آسف .. لم أتعرف الصوت .. »

قالت ضاحكة :

ـ « لا مشكلة .. على فكرة أنا لم أنم بعد .. »

ـ « والسبب ؟ »

ـ « من يدرى ؟.. ربما كنت أفكر فى شخص ما .. هل تعرف من هو ؟ »

قلت فى غباء :

ـ « لا .. »

قالت فى جرأة :

ـ « كنت أراقبك أثناء تلك الندوة .. لم تبد سعيدًا لكنك كذلك لم تبد غاضبًا .. أنت رجل تفضل أن تستمع أولاً .. وهذا لعمرى طراز نادر من البشر .. هل تتخيل أننى عندما عدت لـدارى ظلت صورة واحدة تلاحقنى .. صورتك وأنت تتابع المحـاضرة وتخفى أفكارك .. أحب الرجل الذى يخفى أفكاره .. »

كان جهاز كشف المعادن الحساس فى داخلى يعمل بسرعة .. هذا نوع من الاعتراف بالحب لا شك فيه .. هذه المرأة تهيم بى حبًا ولم تنم ليلتهـا .. القـاعدة الصارمـة لدى هى : لا يمكـن أن

تحبنى امرأة بكامل قواها العقلية .. ببساطة لأننى لا أملك أية مؤهلات لذلك .. هناك استثناء واحد اسمه (ماجى) وهذا يعود لأسباب طويلة منها الذكريات المشتركة ومنها أنها أعطت نفسها الوقت الكافى لتحبنى .. أما من لا تعرفنى جيدًا فمن المستحيل أن تحبنى .. الأرجح أن تكرهنى وتكره الهواء الذى أتنفسه ..

ثم .. ألم تكن هذه السيدة من كارهات الرجال ؟.. ماذا تجنيه من رجل جديد ؟

الاستنتاج المنطقى هو : إنها تلعب بى .. والسبب ؟.. لماذا الآن بالذات ؟

قالت ضاحكة وهى لا تسمع أفكارى :

ـ « اسمع .. سأتركك تنام الآن لكنى أريد أن ألقاك .. »

ـ « تلقين من ؟ »

ـ « ألقاك يا أحمق .. هل وصلت المعلومة ؟ ... اختر مكانًا هادئًا .. ما رأيك فى كافتيريا (...) ؟.. »

قلت وأنا أحاول أن أضع قدمى العاريتين على طرف البساط حتى لا تتجمدا :

ـ « لا .. هذا لا يناسبنى .. »

ثم أضفت فى حزم :

ـ « سيدتى .. أنا لا أنوى أن أكون مادة للتسلية .. وحتى لو افترضنا جدلًا أنك تتحدثين بصدق فإن آخر امرأة يمكن أن انجذب لها فى العالم هى أرملة (إبراهيم) وأم أطفاله .. ليكن هذا واضحًا .. لو أردت عونى فإننى أرجو أن تنسى هذا الكلام الفارغ وإلا فأنت تطالبيننى بالابتعاد نهائيًا .. »

كان هذا فظًا لكن البلاط كان باردًا وكنت أرغب فى إنهاء هذه المحادثة سريعًا قبل أن أصاب بقضمة الصقيع ويبتروا قدمى .. إننا نتصرف أحيانًا لا من وحى عقلنا بل من وحى أجسادنا .. ولكم من صداقة هدمت لأن أحد الصديقين كان يعانى حموضة زائدة أو إمساكًا مضنيًا .. فى رواية (الغريب) لـ (كامو) قتل بطل القصة رجلًا عربيًا لأن الشمس كانت حارقة والذباب يضايقه .. هكذا ضغط الزناد ولم يستطع بعد هذا أن يفسر للمحكمة كيف أن الذباب هو الذى جعله يقتل العربى ..

قالت لى وهى تضع السماعة :

ـ « كما تشاء ! »

وتثاءبت كفرس النهر .. سوف أنام طويلًا وعندما أصحو سأعيد تقييم الموقف ...

هل كان من الأفضل أن أجاريها لأفهم ما تعنيه أم ..؟

* * *

فى الخامسة صباحًا نفد الوقود الذى تستعين به أعصابى ..

كان يومًا طويلاً مرهقًا .. استيقظت فى الواحدة بعد الظهر .. لكن ما تلا ذلك من أعمال جعل الوقود ينفد سريعًا .. ويجب أن أعترف بأننى لم أتمكن من الجلوس إلا فى الثالثة صباحًا .. ماذا كنت أفعل ؟.. هذا ليس من شأنك طبعًا .. مواعيد ذات طابع طبى .. موعدان مع صديقين .. موعد مع (كاميليا) صديقى الذكى المهذب (لو كنت من قرائى فأنت تعرف لماذا أستعمل صيغة المذكر) .. لا شىء فيما عدا هذا ...

جلست فى الفراش ورحت أحاول حل الكلمات المتقاطعة فى الجريدة .. وهو شىء مستحيل مع حالتى العقلية الحالية .. خمسة أفقى ... ابتلعه الحوت من خمسة أحرف (معكوسة) .. (يونس) عليه السلام ؟.. لكنه من أربعة أحرف .. استكملت حل الصفوف وعدت أحاول مطالعة الاسم (س ى ن و ى) ... كتبت (س ى ن و ى) بخط كبير على هامش الجريدة .. معكوسة ؟.. أى أن الاسم (يونيس) .. وهذا يدل على أن مؤلف الكلمات المتقاطعة لم يكن أصفى عقلاً منى .. لقد وجد نفسه فى ورطة خمسة حروف لا يعرف ما يفعل بها فقرر أن يضيف الياء إلى الاسم .. ربما لن يلاحظ أحد .. أنا لاحظت ..!.. أى هراء هذا !

هكذا غصت فى الفراش أكثر وتثاءبت كالوشق ثم اندسست تحت الغطاء الدافئ .. إننا فى زمهرير الشتاء لهذا يعنى الدفء النعاس والعكس صحيح .. تقضى بعض الوقت حتى يذوب الثلج حول قدميك ثم يبدأ الدفء يتسرب ببطء لذيذ ، وسرعان ما تأتى الاحلام معه ، وهى فى البداية مضطربة مجنونة يحسدها (بريتون) وكل الأخوة السرياليين .. ثم تتخذ شكل الحلم المعتاد ..

كنت قد بدأت فى الأحلام المنتظمة الأرسطوطالية .. أى التى لها بداية ووسط ونهاية .. عندما شعرت بذلك التيار البارد فى الحجرة ..

كنت نائمًا على ظهرى أغط بصوت عال ... والبرد يتسرب إلى الحلم ليعطيه طابعه .. ربما كنت فى (سيبيريا) أحارب الدببة ، أو كنت فى حقل مقفر فى قريتى أفر من شىء ما .. شىء لا اتمنى معرفة كنهه .. لا اذكر بالضبط ...

لكنى كنت أغط ..

كنت أغط ...

وفى الوقت ذاته يتقدم رجل الثلوج المخيف منى .. البرد يتساقط من فرائه ، وهو يخور .. ثم يجثم فوقى وأنا نائم على ظهرى .. إنه يبغى عنقى ..

هذا كابوس .. أعرف أنه كذلك .. التعساء الذين يتناولون عشاء دسمًا وينامون على ظهورهم .. إن الكوابيس تزورهم ..

الجاثوم .. الشىء الذى يتسلل للنيام على ظهورهم ليلاً ليجثم فوقهم .. عندها تتسرب منهم الحياة .. أنا عرفت الجاثوم من خطاب رهيب أرسله لى مدرس شاب لابد أنه (نكرومانسر) محترم الآن ..

فى كل ثقافة هناك من يجثم على النيام ليلاً .. لابد أن هذا ..

ثم فتحت عينى ...

* * *

كانت الإضاءة خافتة لكنى استطعت أن أراها ..

لم تكن كائنًا بشريًا .. كانت شيطانًا ..

العينان تتوهجان باللون الأحمر فى الظلام .. هل هو لونهما أم أن الأحمر يشع منهما فعلاً ؟..

الشعر منفوش كشعر (ميدوسا) .. والفم مفتوح عن أسنان حادة كلها .. "لا ليست كأنياب الثعبان بل كلها حادة مشرشرة ..

كانت خفيفة الوزن لكنها تجثم فوقى وأنا عاجز عن الحركة ..

إن يديها الباردتين تحتويان رأسى فى نوع من الحنان الحازم ..

إنها حقيقة ولست أتخيل !

كل هذا يمكن قبوله على مضض ، لكن ماذا عن الشىء الذى يخرج من فمها كأنه ممص طويل مدبب يتجه فى شوق ونهم إلى أوردة عنقى ؟

رأيت كيف يلتهم ثعبان البوا فريسته فيخرج قصبته الهوائية من تحت جسد الفريسة إلى الهواء الطلق كى يستنشق الهواء مباشرة .. المشهد الذى لابد أنه يقتلك رعبًا قبل أن يقتلك الثعبان !

إنها تفعل الشىء ذاته !

من هى ؟.. لا أعرف .. هى قاتلتى وكفى ..

وشعرت بالثقب فى وريد عنقى .. الوريد الودجى الداخلى بالذات ..

كانت تعمل فى نشاط وكفاءة .. وكانت صامتة تمامًا برغم أن الأمر يستأهل بعض الزئير أو الخوار ..

حتى أننى لم أستطع الحركة أو الكلام .. فقط حركت ذراعى فى وهن لكنى لم أستطع رفعهما إلى مستوى أعلى من الفراش ..

صوت الامتصاص يثير الغثيان ..

وفى اللحظة التالية أدركت أننى أتسرب من هذا العالم ...

هل الصدمة العصبية قتلتنى أم قلبى الواهن ؟.. تفاصيل لا تهم إلا الطبيب الذى سيقوم بتشريحى ...

أتسرب .. كبالوعة انتزعت سدادتها ...

إلى أين ؟

ترى هل أعود ؟

* * *

15- أساطير سامية ..

كلا .. لم أمت لو كنت قد لاحظت هذا ..

كنت الآن راقدًا فى الفراش فى ضوء الشمس المتسرب من الشرفة المفتوحة ..

فوضى عامة فى كل الغرفة والفراش ذاته فى حال يرثى لها ..

كان هذا كابوسًا .. كابوسًا يعلمنى ألا أتناول الزبادى والجبن فى العشاء .. لكن ماذا آكل إذن ؟.. لا أتصور وجبة اسهل من هذه .. لكن هذه ليست مشكلة الكابوس .. لا تتعش أصلاً فهذا أفضل ..

إذن لم أمت .. فقدت الوعى لكنى لم أمت ..

ثم أدركت أن الأمر لا يتعلق بكابوس ..

كانت الوسادة مبللة بالدم الجاف .. وحينما نهضت أدركت أن أعلى منامتى ملوث بالكامل ..

لقد كانت حقيقة ...

نهضت إلى المرآة فخذلتنى قدماى وسقطت أرضًا ..

لقد .. لقد نزفت كثيرًا على ما يبدو .. لكن ليس بما يكفى لقتلى ..

تحاملت على نفسى حتى بلغت المرآة ووقفت أتأمل وجهى الشاحب .. وبالفعل رأيت ذلك الثقب القبيح فوق الوريد الودجى الداخلى وقد سدته جلطة دم .. كل ما حدث حقيقى ..

تذكرت الوطاويط مصاصة الدماء فى أمريكا الجنوبية .. إن الناس يصحون من النوم ليجدوا ثقوبًا فى أرجلهم أو أذرعهم ويصابون بفقر دم مزمن .. أما الحيوانات صغيرة الحجم فتموت ..

لقد كنت فى قبضة مصاص دماء .. مصاصة دماء إذا شئنا الدقة ..

لكن من هو ؟..

ماذا أراد منى ؟

ثم ـ السؤال الأهم ـ لماذا لم يقتلنى وقد كنت كطفل بين يديه ؟

* * *

تناولت وجبة مغذية وبعض أقراص الحديد .. عندما تكون نسبة صبغ الدم الهيموجلوبين أعلى من ستين بالمائة يمكن الاستغناء عن نقل الدم ، وأنا أعتقد أن هذا هو الحال معى ...

ما سبب ما حدث ؟..

لم يستجد شىء فى حياتى منذ فترة لا بأس بها .. لم أفتح توابيت .. لم أجد لفافة غامضة .. لم أتعرض لمزيج سحرى .. لم ألتهم طعامًا مريبًا .. لم ..

لم أجد قلادة مريبة !!!!

بل هذا حدث !

هرعت إلى مكتبى وبحثت عن القلادة .. منذ البداية أدركت أن هناك عملية تفتيش جرت هنا .. اقتحام أدراج وعبث فى كل مكان .. لكن ذلك الكائن أحمق .. أنا أخفى هذه الأشياء فى ذلك الدرج السحرى الذى لا يعرف أحد سره .. إن هذا المكتب عتيق يخص أبا صديق لى ، وقد ابتعته منه .. فى عصر الأب كان يخفى المجوهرات وأوراق العقود الثمينة فى هذا الدرج السرى .. أنا لا أخفى فيه إلا لفائف التبغ حينما أصمم على الإقلاع .. وهذا يجعلنى قادرًا على الوصول لها برغم كل شىء .. ثم وضعت فيه تلك القلادة لأننى كنت اشعر طيلة الوقت أنها دليل مهم وأن رجال الشرطة سيقبضون على فى أية لحظة بسببها ..

إذن هذا الكائن كان يبحث عن القلادة ..

عندما تفحص مريضًا وتجد زيادة فى كريات الدم البيضاء فإن هذا يعنى أن هناك نقطة بداية تنطلق منها ... وأنا املك هذه النقطة ..

لابد من معرفة سر هذه القلادة ..

ثـم ..

لحظة من فضلك ..

ألم يكن وجه ذلك المسخ مألوفًا ؟... ألا يمكن بشىء من الخيال أن تفترض أن هذا وجه مدام (عفاف) ذاته وقد حل به تشوه مفزع ؟

عندئذ تكون القصة واضحة ..

تكون قد عادت لتسترد القلادة .. لكنها لم تجدها ومعنى هذا أنها ستعود ..

لكن . لابد أننى جننت تمامًا .. لماذا أتكلم كأن هذه حقيقة واقعة ؟.. امرأة شرسة تكره الرجال وتنضم لجمعيات من كارهات الرجال ، لكن هذا لا يعنى بالضرورة إنها مصاص دماء .. لو تعاملنا بهذا المنطق فالجزار اللص الذى أتعامل معه يتحول إلى غول ليلاً ..

كنت مبلبل الأفكار .. بدلت ثيابى وتأكدت من أنى أغلقت كل شىء ثم اتجهت إلى شقة (عزت) .. هذا هو موعد نومه ... سيجن عندما أوقظه لكنى لا أجد مفرًا من هذا .. أعتقد أننى سأقضى ليلتى عنده أو فى فندق .. لا أريد أن أعيش هذه التجربة من جديد ..

استيقظ كما توقعت بالضبط .. كان مذعورًا مندهشًا متعجبًا .. وقد سمح لى بالدخول وهو يحك إبطيه .. كان فى منامته التى

تتكون من منامتين مختلفتين ، وفى الداخل أعد لى بعض الشاى بالصراصير – مشروبه الخاص – وجلس يصغى لى وأنا أحكى له أغرب قصة سمعها فى حياته ..

قال لى أخيرًا وقد بدأ يفيق :

– « هجوم مصاص دماء لا يعنى شيئًا بالنسبة لك على ما أظن .. فحياتك هى تكرار لذات الواقعة ، لكنى أرغب فى أن أرى هذه القلادة .. »

مددت يدى فى جيبى وعرضتها عليه ..

راح يتأملها فى اهتمام بعض الوقت ، ثم نهض بلا كلمة واحدة ..

عاد كما توقعت حاملاً أطلسًا ما .. يبدو أنه يشبه أطلس الشياطين الذى أملكه لكنه يريك نماذج من الفن القديم ..

راح يفر الصفحات وفى النهاية توقف أمام صورة بدائية تحتل نصف الصفحة ..

– « هذا هو ما أردت أن أريه لك .. هذا النقش أشورى .. »

لم تكن صورة قلادة .. لكنها كانت تمثل بالضبط ذلك الوحش الذى تمثله القلادة .. لن اعيد النظر مرتين لأتبين هذه الملامح التى صارت مألوفة .. ثلاثة الرءوس .. الأسد ...

تحت الصورة كتبت بحروف كبيرة كلمة (أزموديوس) ..

وتحت العنوان بحروف أكبر كتبت عبارة (زوج ليليث) ..

* * *

الآن يتغير كل شىء ..

الآن أستطيع تجميع هذه الخيوط معًا ..

سألنى (عزت) وقد أفاق تمامًا :

ـ « الكلام واضح .. هذه القلادة تمثل (أزموديوس) زوج (ليليث) .. لكن من هى (ليليث) ؟ »

قلت له أن يعد لى كوبًا آخر من الشاى لأن رأسى سينفجر ..

ومع الشاى الأسود الثقيل بدأت أتكلم .. كنت أكلم نفسى فى الوقت ذاته :

ـ « فى كل الثقافات السامية سوف تجد ذلك النموذج .. تجدها فى الأساطير البابلية .. الأشورية .. العربية .. العبرية .. الأنثى مصاصة الدماء التى حرمت الأطفال فقررت أن تنتقم من أطفال الأخريات .. فى اليونانية تجد كلامًا عن (لاميا) الرهيبة التى كانت ملكة ليبيا .. عند الأشوريين كانت هناك الشيطانة (لاماستو) التى تقتل الأطفال الصغار .. ربما وهم فى أرحام أمهاتهم .. فيما

مضى كانوا يفسرون أكثر حالات موت الأطفال والإجهاض على هذا الضوء .. طبعًا هناك موضوع طبى شديد الأهمية اليوم اسمه Sudden Infant Death أو SID والغرب ساهر الآن على بحث هذه التفسيرات .. قيل إن سبب هذا هو الإجهاد الحرارى .. قيل إن الرضيع يفقد السيطرة على جهازه الحرارى عندما ينام على بطنه ويدثر فى الأغطية .. هذه نظريات ، لكن القدماء وجدوا الحل بسهولة كما فى نشأة أية أسطورة .. مجرد ظاهرة طبيعية غامضة يخترعون لها قصة معقدة ، وكان الحل هو أن الأخت (لاماستو) تتسلل لتفتك بالطفل .. لهذا كانوا يرسمون فى غرفة نوم الطفل دائرة بداخلها آدم وحواء .. وكانوا يكتبون على الجدران : اخرجى يا ليليث .. »

هنا تدخل (عزت) :

ـ « لحظة .. أنت تتكلم عن (لاماستو) فمتى ظهرت (ليليث) هذه ؟ »

قلت له فى غيظ لمقاطعتى :

ـ « قلت لك إنها نفس الكائن فى عدة ثقافات .. لاميا .. لاماستو .. ليليث .. الأخوات إمبوسى أو مورموليسيا (الذئاب المخيفة) .. كلهن الشىء ذاته على الأرجح .. قلت لك إنهم كانوا يضعون رسم آدم وحواء على الجدران مع كلمات تبعدها عن

الطفل مثل (سينوى) و(سانسينوى) ... لا أحد يعرف معنى هذه الكلمات لكنها مفيدة على ما يبدو .. »

وفجأة توقفت عن الكلام وهتفت :

ـ « (سينوى) !!.. فهمت !... (يونيس) مقلوبة !!... لقد أنقذت الكلمات المتقاطعة حياتى أمس .. لو لم اكتب الاسم على الجريدة فلربما .. »

قال (عزت) فى ملل :

ـ « لن أطالب بالتفاصيل لأنك جننت تمامًا .. فقط أكمل قصتك .. »

قلت له غير مبال باتهامه لى بالجنون :

ـ « قيل إن الطفل لو ضحك فى نومه فالسبب هو أن (ليليث) فى الغرفة .. وكان عليك أن تضرب شفتيه بإصبعك لتطردها .. »

نظر حوله وارتجف ، وقال :

ـ « الحق يقال إنها لقصة مفزعة .. إننى لا أشعر بأننى على ما يرام .. هذا هو التفسير الذى قالوه لضحك الطفل أثناء نومه ؟.. كانت أمى تقول إن الطفل يحلم بمن يشتمون أباه !.. أما لو بكى فهذا لأنه يحلم بمن يشتمون أمه ! »

قلت باسمًا :

ـ « على الأقل قصة (ليليث) مهذبة خالية من الشتائم .. بالنسبة لـ (لاماستو) قيل إنها برأس أسد ولها جناحان كالطير .. أرى هذا مجرد تنويع على العنقاء .. وكانت النساء الحوامل يعلقن قلادة فيها صورة (بازوزو) عدو (لاماتسو) العتيد .. هذا لحمايتهن من الإجهاض طبعًا .. »

ثم أضفت :

ـ « لهذا كانوا ينصحون الرجال بألا يناموا وحدهم فى الدار أبدًا .. يبدو أن (ليليث) لم تكن تكتفى بممارسة نشاطها مع الأطفال بل كانت تختار أحيانًا الرجال النائمين على ظهورهم لتمتص دمهم .. إن اسم (ليليث) غريب .. يقال أحيانًا إنه مستوحى من اسم (ليليتو) ـ روح الريح ـ أو ليلاك التى تعنى (الليل) فى المخطوطات السومرية فى (أور) .. على فكرة كانت هناك مواجهة مهمة بينها وبين (جلجاميش) عندما كانت تختبئ فى شجرة الصفصاف على ضفة نهر الفرات .. وقيل إنها تعيش فى الخرائب وسط بنات آوى والبوم والثعابين .. هؤلاء أسرتها .. »

سألنى (عزت) وهو يحاول تذكر ما قلته :

ـ « قلت إن للقصة طابعًا عبريًا .. »

ـ « هذا صحيح .. لكن الأمر يدخل هنا فى مجموعة من التخاريف التلمودية .. فاليهود يعتقدون أن (ليليث) هى الأنثى الأولى ـ قبل حواء ـ التى رفضت أن تخضع لسلطة آدم .. قررت أن تتمرد عليه من ثم عوقبت بأن صارت هذا المسخ .. على فكرة هناك اليوم جمعيات نسائية عديدة فى إسرائيل ترفض سلطة الرجل وتعتقد أن الوقت قد حان للخلاص منه ، وشعار هذه الجمعيات هو (ليليث) نفسها !.. كذلك يعتقد اليهود أن سيدنا (سليمان) عليه السلام شك فى (بلقيس) ملكة سبأ عندما رأى أن ساقيها مشعرتان أكثر من اللازم وحسبها (ليليث) .. أنت تعرف أنها كشفت عن ساقيها عندما خشيت أن تبتل بالماء وهى تدخل قصر البلور الذى بناه .. على فكرة .. هناك أساطير تتحدث عن كون (ليليث) عقيمة لا تنجب ، وأساطير تتحدث عن أبنائها الأشرار مثلها الذين يطلق عليهم (ليليم) .. »

ـ « وموضوع زوجها هذا ؟ »

ـ « آه ؟.. تتحدث عن الأستاذ (أزموديوس) ؟.. إنه فى العقائد اليهودية ملك الشياطين .. مهمته محددة جدًا هى تفرقة الأزواج .. إنه يفرق بين الزوج وزوجته ويحببهما فى الفسق والزنا .. ويقال إنه طرد إلى أرض مصر بوساطة تعويذة من قلب وكبد السمكة اللذين تم حرقهما .. »

نهض (عزت) إلى المكتبة ليضع ذلك المجلد الذى جاء به وقال :

ـ « إن كل هذا مسل ، لكن لا تقل لى إن هذه الأساطير العبرية الأشورية ذات مصداقية .. لا تقل لى إن سبب الهجوم عليك أمس هو أن (ليليث) كانت مارة بالصدفة ، فوجدتك نائمًا على ظهرك .. »

قلت له وأنا أفكر بعمق :

ـ « بالطبع لا .. لكنى أجد رائحة مألوفة فى كل هذا .. هناك من يحاول أن يعيد إحياء هذه القصة .. هناك زوجة متمردة على زوجها .. مجموعة من الزوجات الثائرات على الرجل . أم لا تريد أطفالها .. والسبب ؟... هناك قلادة عليها صورة ذلك الأخ الذى يفرق بين الرجل وزوجه وهذه القلادة تبحث عنها الزوجة لأنها تخصها .. هناك هجوم ليلى من كائن لا أجد ما يصفه إلا بأنه مصاص دماء .. ألا يدق هذا كله جرسًا ؟... »

ـ « هل تتهم الزوجة بأنها (ليليث) ؟ »

ـ « أتهم شخصًا ما بأنه حول هذه الزوجة الرقيقة المطيعة إلى (ليليث) .. وأراهن على أنها تحاول المقاومة .. لماذا لم تستعد أطفالها بعد ؟.. لأنها تخشى أن تؤذيهم .. إنها تتحول ولا حيلة لها فى ذلك .. »

* * *

16ـ فى الليــــل ..

كنت أشعر بالغباء والبلاهة لكنى رحت أخط على كل الجدران فى الصالة لفظة (سينوى) .. إن القصة كلها عجيبة فلا أقل من التعامل معها بأسلوب أعجب ..

تقرر أن أنام عند (عزت) .. لكن إلى متى ؟

هل تملك هذه الليليث قدرات فائقة ؟.. هل سوف تعرف أين القلادة وأين أنا ؟.. هل سوف تأتى إلى هنا طالبة القضاء على ؟

لا أعرف ..

ترى لو استردت قلادتها فهل تتركنى وشأنى ؟

لا أعرف ..

إنه الثلاثاء .. عندما جاءت السابعة والنصف شعرت برغبة ملحة فى أن أذهب إلى ذلك الاجتماع فى المعادى ..

هكذا استقللت سيارتى ولم يكن (عزت) فى الدار لذا أزمعت أن أذهب وحدى .. أريد أن أرى وجه (عفاف) ..

كان المشهد شبيهًا بما عرفته منذ أسبوع ، لكن عدد الحاضرات كان أقل وأعتقد أنى كنت الرجل الوحيد .. هذا بالطبع لو التزمنا حدود الأدب فلم نتهم بعض النسوة هناك بالرجولة ..

رأيت مدام (عفاف) تمشى مع صديقتها المخيفة ، فناديتها .. نظرت لى فى مزيج من الدهشة والمقت .. فجريت إليها ..

كنت أتكلم وأنا أنظر فى عينيها .. ترى هل أنت حقًا ؟.. هل كنت أنت ذلك الكائن الشيطانى الذى جثم فوقى فى الظلام يحاول انتزاع الحياة من أوردتى ؟.. لا أصدق ولا أربط بين الحدثين لكن كل شىء يؤكد هذا ..

أخرجت القلادة من جيبى ، وقلت لها :

ـ « القلادة التى حكيت لك عنها .. لقد وجدتها ! »

انتزعتها من يدى فى شىء من اللهفة .. ودستها فى حقيبة يدها الصغيرة ..

سألتها باسمًا :

ـ « هذا النقش جميل .. أعتقد أنها قلادة أثرية ! »

قالت بصوت كالفحيح :

ـ « إنها ميراث بالغ الأهمية .. تذكرنى بعمتى .. أشياء من هذا القبيل .. أعتقد أن قيمتها المادية صفر لكنها لا تقدر بثمن معنويًا .. »

ساد صمت ثقيل ثم هزت رأسها واتجهت إلى منضدة مع صديقتها ..

هكذا وجدت نفسى أجلس وحيدًا عند أطراف المكان ، ودنا منى ذلك الشاب الذى يعمل نادلاً .. لاحظت أنه شديد الوسامة والجمال .. طبعًا .. ليس الرجال فقط هم من يشترطون سكرتيرة حسنة المظهر أو ساقية جميلة .. إن المعاملة هنا بالمثل .. طلبت منه قدح قهوة .. ثم سألته همسًا :

ـ « من صاحب هذه الفيلا ؟ »

كان شابًا حزينًا لا يبدو سعيدًا بما يقوم به ... لذا قال همسًا :

ـ « هى ليست فى مصر .. إنها تدعى مدام (ليلى) .. لم أرها قط .. »

ـ « هل هى مصرية ؟ »

ـ « ربما كانت تركية .. لست متأكدًا .. »

بدأت الجلسة .. ومن جديد ظهرت تلك الخطيبة المفوهة التى تشتم الرجال عشر مرات فى كل جملة تقولها .. ومن جديد تصاعدت آهات الاستحسان ..

فيمينزم .. قلتها لنفسى همسًا وأنا أرشف القهوة ..

هؤلاء النسوة مجانين ، وهن بالفعل يتخلين طواعية عن أقوى سلاح فى ترسانة المرأة .. رقتها .. على كل حال بما أننى الرجل الوحيد هنا فقد صارت الشتائم تنهال على رأسى مركزة .. لايمكن أن أفترض أنها عامة .. بل هى مصوبة متعمدة ..

بعد ربع ساعة وجدت أن على أن أرحل .. لابد أن أننى احمرتا إلى شكل ملفت للنظر ..

هكذا استقللت سيارتى عائدًا إلى الدار .. وفى هذه المرة لم أكن أعتزم النوم فى شقتى .. ابتعت جبنًا وبيضًا وبعض الخبز ، وقررت أن أعد العشاء لـ (عزت) على سبيل الشكر لاستضافتى ..

كان قد عاد إلى الدار فحكيت له تفاصيل ما حدث .. وقضينا أكثر الليل نتكلم فى السياسة والفن .. وفى الرابعة صباحًا بدا أن علينا النوم مبكرين .. إن بوسعنا السهر حتى العاشرة صباحًا لكن لابد للمرء أن يعنى بصحته ..

هكذا دخل فراشه بعد إلحاح منى ، وافترشت أنا الأريكة فى الصالة .. خرج من غرفة النوم حاملاً لحافًا ثقيلاً يصلح للوقاية من الانفجارات النووية فشكرته والتففت به وتمددت .. وسمعت الأنوار تغلق قبل أن أراها تغلق ..

لابد أننى نمت نصف ساعة أو أكثر .. لأننى كنت هناك فى ذلك الاجتماع العجيب أصغى للنسوة يتشاجرن بصدد كيفية القضاء على الرجال .. على غرار مزرعة حيوانات (جورج أورويل) ... قدمان شىء سيء .. أربع أقدام شىء حسن .. شارب ولحية شىء سيئ .. الموت للكروموسوم Y والمجد للكروموسوم X .. الموت لهرمون التستوستيرون والمجد لهرمون الإستروجين .. الموت لشريان الخصية والمجد للشريان الرحمى ..

الموت ...

ثم فتحت عينى ... إننى أرى المكان فى هذا الضوء الخافت .. التماثيل العملاقة القبيحة التى يصنعها (عزت) طيلة الوقت .. أرى السقف و ....

غريب هذا السقف .. إن به بقعًا كبيرة .. لابد أن ساكن الطابق العلوى لديه خلل فى مغطس الحمام .. يجب أن يتنبه (عزت) لهذا قبل أن يتهاوى السقف فوق رأسه ..

لكنها تتحرك !

هذه البقع تتحرك ..!

دققت النظر أكثر ثم مددت يدى أتحسس بحثًا عن عويناتى التى تركتها بجوارى على مقعد جوار الأريكة .. وضعتها على عينى .. لا مزاح هنالك ..

هذه ليست بقعًا ..

إنه جسم عملاق يزحف على السقف .. أقرب شىء إلى بورص ضخم يزحف هناك وقد فرد أطرافه الأربعة متمسكًا بالسقف .. الفارق هنا أن هذا البورص فى حجم الإنسان !

إن له شعرًا طويلاً متهدلاً ... إن له جسم أنثى ...

(ليليث) !!..

إنها هنا !!

رأيت ذلك الجسد المرن ينزلق فوق الجدار متجهًا إلى غرفة النوم حيث ينام (عزت) .. لا أعرف كيف ولا متى استطاع أن يدخل من فرجة الباب العليا .. وفى لحظة لم يعد منه فوقى إلا الذيل الطويل ..

وكان تصرفى أسرع من تفكيرى ..

مددت يدى بسرعة إلى الباب وأغلقته بعنف .. فانغلق على الذيل العملاق ..

وكان ما توقعته وخشيته ..

لقد دوى الصراخ المريع الذى يصم الآذان ...

صراخ لا يمكن وصفه .. صراخ تتمنى لو أنك مت كى يتوقف ولو ثانية واحدة ..

صرخة لا تأتى من حنجرة بل من أعماق أعماق التاريخ .. من سقر .. من أساطير العبرانيين والأشوريين والسومريين ..

وعلى الأرض سقط ذلك الشىء المقزز يتلوى ..

لقد قمت ببتر الذيل ..

ونهضت مسرعًا إلى منضدة أدوات النحت .. وضعت قرصًا من النترات تحت لسانى أولاً ، ثم وجدت ذلك الإزميل العملاق الذى كنت أعيش هاجسًا مزمنًا أن يسقط فوقى .. قبضت عليه بقوة ثم تناولت المطرقة وفتحت الباب ..

وفى الظلام وجدت ذلك الشىء المريع على الأرض يعوى ويصرخ كأنه صفارة إنذار ، وهو يتحرك ألف حركة فى الدقيقة .. كان يتلوى فى كل اتجاه وقد فقد القدرة على الاتزان .. كان يحرك يديه وذراعيه فى الهواء مقلوبًا على ظهره ، وبسرعة لا تصدق .. ولم أفكر كثيرًا ..

غرست الإزميل فى الصدر مباشرة وضغطت عليه .. ثم هويت فوق طرفه بالمطرقة كما كانوا يقتلون مصاصى دماء (هامر) فى السينما ..

شىء بارد ينبثق ليبلل وجهى وثيابى ..

ثم همد الجسد أخيرًا ..

أين (عزت) ؟

صحت مناديًا آمره بأن يفتح النور لكنه لم يفعل ..

هكذا نهضت أنا بحثًا عن المفتاح .. وكان ما رأيته يفوق تحملى ..

على الأرض كان ذلك المشهد المريع الذى أتركه لخيالك .. وعلى الفراش كان (عزت) ممددًا على وجهه يرتجف وقد صار لونه أزرق تمامًا .. مددت يدى أتحسس نبضه فلم اشعر به .. جحوظ عينيه يوحى بالموت بالتأكيد .. إنها لم تمسه .. إنه باختصار يمر بأزمة (أديسون) المعروفة من فرط ما مر به من انفعال .. هكذا شأن المصابين بهذا المرض .. لا يتحملون أى انفعال من أى نوع فما بالك بـ ...

حاولت أن أتناسى الكابوس الراقد على الأرض وجريت إلى الصيدلية فى الحمام .. أنا أعرفها أكثر منه لأننى أعددتها بنفسى .. زجاجة محلول ملحى وبعض حقن الهايدروكورتيزون .. جهاز محلول ..

لماذا هاجم المسخ غرفة النوم ولم يهاجمنى ؟.. أعتقد لأن كلمة (سينوى) كانت فى الصالة ولو فكرت جيدًا لكتبتها فى كل ركن .. هذا طبعًا لو كانت لها أية قيمة ..

وعدت بسرعة إلى الفتى فعلقت جهاز المحلول إلى إطار النافذة فوق الفراش ، وقمت بتثبيت الإبرة إلى عروقه ثم أفرغت حقنة فى وريده ..

اتجهت إلى الباب لأبحث عن مزيد من العقاقير ، هنا شعرت بتلك اليد تنطبق على ساقى ..

يد قوية قاسية كأنها ملزمة النجار ..

هذه هى القاعدة . لا تعبر فوق جثة المسخ الميت أبدًا لأنه يصحو دائمًا فى تلك اللحظة .. هذه هى القاعدة وقد نسيتها ..

كان فزعى لا يوصف .. لكنى فى اللحظة التالية أدركت أنه لا ينوى الهجوم ..

كان ينظر لى بتلك العينين الحمراوين ، ومن بين شفتين داميتين قال بصوت كالفحيح :

ـ « اسمها (ليلى) !.. لن يتركوك !! »

ثم تخلت عنى اليد ...

عندها أيقنت بما لا يدع مجالاً للشك أن هذا الشىء كان هو (عفاف) ذاتها ..

لقد كانت الملامح واضحة ... صحيح أن تشوهًا مريعًا أصابها لكنك تعرف كيف يظل الأنف فى مكانه والنظرة فى العينين .. لأسباب كهذه يعرفك صديق دراستك الابتدائية عندما يلقاك وأنت فى سن المعاش ..

وعندما بدأ الدخان يتصاعد عرفت أن القصة انتهت .. قصة هذا المسخ على الأقل ..

فجأة بدا الجسد كقطعة فحم انتهى ما بها من طاقة .. فقط بقع حمراء تتوهج هنا وهناك ، ثم ينهار جزء .. يليه جزء آخر ..

عملية عضوية محكمة الهدف منها أن يصير هذا الشىء كومة من الرماد خلال دقيقة ..

سوف يكون التنظيف سهلاً .. لن تحتاج إلا إلى المكنسة وكنت أحسب الأمر سيكون أعقد .. لكنها تركت أثرًا مهمًا أشكرها عليه .. وقد تناولته بحرص من بين الرماد ..

الدخان يملأ الغرفة ..

مشيت مترنحًا إلى الفراش حيث كان (عزت) يرقد ..

فتح عينيه ببطء والعرق يغرق الملاءة ويصنع له شاربًا صغيرًا على شفته العليا ..

قال بصوت هامس واهن :

ـ « ماذا حدث ؟ »

* * *

17ـ مغامرة سخيفة ..

راح الأطفال يلتهمون الحلوى التى جلبتها لهم ، وبعد قليل جاءت أم (سيد) حاملة صينية عليها كوب من الشاى فأخذتها شاكرًا .. بدت لى مسنة فعلاً بحاجة إلى من يعنى بها هى نفسها ..

كانت أم (إبراهيم) تجلس أمامى مستندة إلى عصا .. نموذج لما سيطلق عليه الأطباء فيما بعد اسم (متلازمة X) .. وهو خليط فريد من مرض البول السكرى وارتفاع دهون الدم والبدانة وارتفاع ضغط الدم .. أى كل ما من شأنه أن يقضى على القلب .. وكانت قد فقدت ابنها مما أضاف إلى آلامها ألمًا لا يوصف ..

قالت لى وهى تتحسس ظهرها كأنها تقوم بتجبيره :

ـ « الأم التى ليس لها خير فى زوجها ولا أبنائها جديرة بأن تصير حطب جهنم .. فلتذهب إلى الجحيم .. »

قلت صادقًا :

ـ « من يدرى ؟ ... ربما كانت مظلومة .. ربما كانت مريضة .. إن العقل يمرض .. »

قالت فى عصبية :

ـ « مريضـــة ؟.. أنا مريضــة لكن هـذا لا يمنعنى مـن القيــام بواجبى .. هى تخلت عن زوجها وأبنائها بلا مبرر .. والآن اختفت تمامًا .. لا يعرف أحد فى أية حفرة من جهنم ترقد ، لكنى لا أبالى .. »

واحمر وجهها وسعلت ..

كانت (عفاف) قد اختفت تمامًا .. الكل يبحث عنها والشرطة تفتش ، لكن لا أثر لها .. وساد اعتقاد أنها عند واحد من أقاربها لا نعرفه .. زوجة كهذه يمكن أن تكون فى أى مكان فى أى وقت لأى مبرر ..

أنا كنت أعرف . إنها كومة رماد فى سلة مهملات (عزت) ..

يجب أن أعترف أننى حزين جدًا لكل ما حدث .. لكن بربك ماذا كان بوسعى ؟.. هل يجب أن أتركها تمتص دمى لمجرد أنها كانت مضيفة مهذبة فيما سبق ؟.. لقد تحركت الأمور بشكل تراجيدى إغريقى جعل لا مفر أمامى إلا ما فعلت ..

أما (عزت) فقد استرد عافيته سريعًا ... ولم نتبادل كلمة عن الموضوع إلا بعد يوم كامل ..

انتهت الجلسة فنهضت شاكرًا معلنًا رغبتى فى الانصراف .. كان هدف الجلسة هو أن أطمئن على الأطفال .. وقد فعلت .. وحاولت أن أبعد عن ذهنى فكرة أن هؤلاء الأطفال فقدوا أباهم

ثم لا يعرفون أنهم فقدوا أمهم .. وأننى المسئول عن هذا .. لكنى لا ألوم نفسى البتة ..

وعلى الباب أقسمت أن أنتقم ... سوف يدفع من فعل هذا كله الثمن ..

لكن من هو ؟

* * *

ـ « اسمها (ليلى) !.. لن يتركوك !! »

ـ « اسمها (ليلى) !.. لن يتركوك !! »

* * *

أدور بسيارتى حول تلك الفيلا فى المعادى بعد منتصف الليل ..

بالنسبة لى صار الأمر واضحًا تمامًا .. صاحبة الفيلا اسمها مدام (ليلى) ... المسخ قال : « اسمها ليلى .. لن يتركوك » .. هل تجد اسمًا أقرب إلى (ليليث) من (ليلى) ؟...

لكن من هى وأين هى ؟

قال المسخ إنهم لن يتركونى .. هم كثير إذن .. ولماذا لن يتركونى ؟.. واضح أن التخلى عن القلادة لم يكف لشطبى من قائمة الضحايا .. لهذا عادت فى تلك الليلة .. لكن لماذا ؟.. حاليًا

هناك سبب مهم هو الانتقام .. لكن لماذا عادت هى لى مع أن القلادة معها ؟.. ربما لأننى أعرف أكثر مما يجب .. ربما لأنهم حسبونى أعرف أكثر مما يجب ...

أنا أبدو مريبًا عندما أكون مريبًا .. هذا شىء معروف عنى .. فى الماضى كان أولاد خالى يسرقون المربى معى لكنى الوحيد الذى يُضرب لأنى الوحيد الذى يبدو آثمًا ..

يبدو أن نظرات عينى قالت لهؤلاء النسوة بوضوح تام : أنا أعرف كل شىء عنكن .. أعرف كل شىء عن (ليليث) ولسوف أقضى عليكن ..

هكذا لم يعد أمامى خيار .. أنا لا أنتقم فحسب .. بل أنقذ عنقى كذلك ..

أشعر بالخجل من نفسى .. فلو كنت بطلاً من أبطال القصص المحترمين لتسلقت سور هذه الفيلا وتسللت إلى الداخل حاملاً كشافًا .. فإذا هاجمنى أحدهم وجهت له ركلة ثم كتمت فمه كى لا يصرخ .. هذا لو كنت من أبطال القصص ، لكنى شخص عادى جدًا أو أقل من العادى .. فماذا بوسعى أن أفعل ؟..

بوابة مغلقة عليها جنزير ضخم .. ولا توجد إضاءة بالداخل .. فيلا مهجورة هى .. هذا واضح تمامًا ..

واصلت الدوران ..

ثم أوقفت سيارتى فى بقعة مظلمة من تلك البقاع الصالحة للسرقة .. لو عدت فوجدت زجاجها سليمًا لظننت أننا نعيش فى المدينة الفاضلة ..

ترجلت ورحت أمشى الهوينى فوق الإفريز المحيط بالفيلا .. شد ما يختلف الأمر فى هذه الليلة الباردة الصموت عن الأمر فى أمسيات الثلاثاء الصاخبة ..

رائحة نباتات .. رائحة الليل .. أدس يدى فى جيبى وأواصل المشى ..

وهنا وجدت ما أبحث عنه ..

كانت هناك بالفعل بوابة صغيرة مواربة .. بوابة خلفية مفتوحة قليلاً وارتفاع السور فى هذا الجزء منخفض .. هل هم حمقى إلى هذا الحد ؟.. يمكن لأى لص فى يومه الأول أن يتسلل إلى الداخل ..

لا .. ليسوا حمقى ..

أعتقد أن هذا كمين .. هذا هو التفسير الأوحد ..

وقفت أنظر حولى .. هل أعود لسيارتى ؟.. كان الخيار مغريًا لكنه يحمل كارثة ضمنية : لن أعرف أبدًا .. أنا بالفعل أرغب فى رؤية هذه الفيلا من الداخل ..

عدت للسيارة لكن ليس لأستقلها ، بل لآخذ كشاف البطارية وأشياء صغيرة دسستها فى جيبى .. ثم عدت إلى سور الفيلا ووقفت أرقب البوابة .. الإغراء الذى يجلب الندم .. أنظر للبوابة نظرة مدمن الخمر الذى تاب لله لكنه وجد زجاجة أمامه .. نظرة زير النساء الذى استقام وهو الآن يقف أمام غانية تدعوه لها .. وفى الحالتين من المؤكد أننى سأندم ..

أعرف أننى سأندم .. لكننى سأندم أكثر لو لم أدخل ..

وفى هذه اللحظة جاء الحل بصورة قدرية ..

* * *

سمعت صوت الحركة وأنا واقف جوار البوابة موشك على الدخول ..

فتواريت وراء شجرة عملاقة هناك خارج السور ..

إن الصوت يأتى من الحديقة .. هذا واضح ..

هل هناك كلاب ؟...

عدت أدقق أكثر .. إن الظلام دامس لكنى ظللت فيه فترة لا بأس بها ، وهذا جعل شبكيتى شبكية قط .. إننى أرى ليس بوضوح لكن أرى ..

هذا الصوت ..

لا شك فى أن هناك ما يحرك الأشجار فى الحديقة .. لا يوجد نسيم .. إذن ؟

ثم رأيت ..

من جذع إحدى الأشجار العملاقة رأيت ذلك الجسم يخرج .. يتكور .. ثم يزحف على الأرض زحفًا ليتوارى فى الظلام ...

أنا رأيت ذلك الجسم من قبل .. رأيته على سقف شقة (عزت) .. غير أننى متأكد من أنه جسد آخر ..

وفى اللحظة التالية انساب جسد آخر ليخرج من شجرة أخرى عملاقة فى الحديقة .. ومن جديد توارى فى الظلام ..

أين يذهبون ؟

« كانت هناك مواجهة مهمة بينها وبين (جلجاميش) عندما كانت تختبئ فى شجرة الصفصاف على ضفة نهر الفرات .. »

هذا هو ..

التعديل الأشورى للتوابيت الشهيرة التى يبيت فيها مصاصو الدماء ..

إن هذه الكائنات لا تعيش فى الفيـلا .. إنهـا تعيش فـى جذوع الأشجار فى الحديقة .. تكرار ممل لما كانت (ليليث) ذاتها تفعلـه فى الأساطير .. قيل لـ (جلجاميش) إن شجرة الصفصاف تـؤوى شيطانة .. هكذا هاجم الشجرة واقتلعها ..

أين يذهبن ؟

لم تطل دهشتى لأننى رأيت حافة السور تنتفخ فى الظلام .. ثم فهمت .. إن كائنًا من هذه الكائنات قـد تسلقه وانزلـق من فوقـه كأنـه سحلية .. فبدا البروفيل عكس الضوء كـأن السور ذاتــه ينتفخ ..

إنه الآن فى الخارج !... خارج الفيلا !... فى شـارع المعادى الهادئ المظلم !!

فهمت الآن لماذا لم تكن هنالك كـلاب .. لا يوجد كلب يتحمل هذا المشهد أو رؤية هذه الكائنات المخيفة ..

إنها تغادر لأن ساعتها قد جاءت ..

ساعة الغذاء أو ساعة القتل ..

مخلوق آخر ينزلق فوق السور متجهًا فى طريق آخر ...

هناك أربعة من هذه المخلوقات تزحف الآن كالسحالى المهرولـة عبر شوارع المعادى ، وهدفها واضح .. سوف تتسلل إلى غـرف نـوم رجـال ينـامون علـى ظهورهـم يعتقـدون أن هـذا كـابوس ... ربما يموت الرجل مثل (إبراهيم) أو يفقد قواه ببطء ...

لكن النتيجة واحدة ...

ربما هناك واحدة من هؤلاء تنطلق نحو دارى الآن ... لكنها لن تجدنى ...

بالمناسبة .. ماذا عن حاسة شم هذه المسوخ ؟.. فلآمل أنها تتجه لهدف محدد ولا تبحث عن عابرى السبيل .. فلنـأمل أنها لا تشم رائحة الأدرينالين كما تفعل الأسود والنمور ...

وماذا عن الرؤية الليلية التى أثق بأنها تمتلكها ؟

يجب أن أفر الآن ...

لقد رأيت ما يكفينى ..

* * *

18ـ الحريق ..

وصلت إلى سيارتى فأدرت المحرك ..

إن الطقس بارد فلابد أننى سأجد بعض العسر فى ... كرو كرو كرو !... حمدًا لله !

وهكذا انطلقت فى شوارع المعادى الخالية وقدرت أننى يجب أن أصل البيت لأطمئن على (عزت) .. رباه .. متى ينتهى هذا الكابوس ؟.. على الأقل هناك أربعة من هذه الكائنات تبحث عن شىء ما فى الظلام .. هذا شىء يبعث القشعريرة حتمًا ..

بوم !!

لقد سقط الشىء على زجاج السيارة فأجفلت .. كانت صدمة قوية ارتجت لها السيارة ، ثم بدأت أدرك ما هنالك ..

إنه واحدة من تلك الليليثات قد سقطت على الزجاج .. يبدو أنها كانت قد زحفت على جسم السيارة ثم تسلقت إلى السقف .. والآن هى تطل على مقلوبة من أعلى ..

رأيت ذلك الوجه الشيطانى الذى ألفته والعينين الداميتين .. مع أنبوب المص إياه الذى يخرج من الفم يحاول اختراق الزجاج ..

دعك من أن المخالب تتشبث بالزجاج بما يوحى بأن لها ممصات فى أناملها ..

سحلية آدمية ... لكن ليتها كانت كذلك فعلاً ..

القصور الذاتى .. رحت أحاول التذكر .. لو ضغطت الفرملة فأين يكون اتجاهها ؟.. هل تحطم الزجاج لتضربنى أم تسقط إلى الأمام ..؟.. لا وقت للتدبر ..

إى ى ى ى ى ى ى ى !

هذه هى فرملة السيارة توشك على أن تخرق قاع السيارة خرقًا .. ورأيت الشىء يطير للأمام .. تذكرت الآن .. إنها اكتسبت سرعة السيارة لذا تواصل رحلتها للأمام ..

وسرعان ما تراجعت بالسيارة للوراء ، ثم انطلقت مذعورًا فارًا من هذا المكان الكئيب ..

هل هلكت ؟

لا أظن ..

لو كانت فرملة سيارة قادرة على قتل (ليليث) لكان العالم مكانًا أجمل بكثير ..

* * *

- « نحرق الحديقة ؟.. هل جننت ؟ »

كانت هذه من (عزت) وهو يركض ورائى غير فاهم ما يحدث .. وكنت أنا أحمل (جركن) الكيروسين ..

ألقيت بهذا الحمل فى السيارة ، ثم فتحت له الباب ..

قلت وهو يثب فى المقعد بجوارى :

- « لن أقوم بهذا العمل وحدى .. أريدك معى .. »

وانطلقت بالسيارة وسط الشوارع شبه الخالية ..

كان موشكًا على الخروج لبدء يومه بعد منتصف الليل كعادته ، حينما قابلته على الدرج .. وعندها طلبت منه خدمة أخوية بسيطة : أن يساعدنى فى حرق تلك الحديقة ..

رحت أشرح له ما رأيت فى الطريق ، ثم أضفت :

- « لا يمكن أن أطلب هذا من جهة رسمية ما .. لا يمكن أن أفعله وحدى .. أريد من يساعدنى .. أعتقد أن الحى كله سيصحو على هذه النيران .. يمكن بسهولة أن نجد نفسينا فى السجن .. »

مد يده يفتح المقبض ، وهو يغمغم :

- « إذن هذا فراق بينى وبينك .. »

صحت فى عصبية :

- « هل جننت ؟.. لو وثبت من السيارة للقيت حتفك .. »

- « ولو بقيت لدخلت السجن .. »

عدت أقول فى صبر :

- « اسمع يا (عزت) .. القصة لا مزاح فيها ... أنت تعرف طرفًا منها .. إنها فرصتى الذهبية أن أحرق هذه الأشجار بينما تلك الكائنات فى مهمتها المفزعة .. ثمة احتمال 90٪ أن ينجح هذا فى القضاء عليها .. فى قصص مصاصى الدماء يلقون فى التابوت الفارغ صليبًا كى يمنعوا مصاص الدماء من العودة .. هكذا يجد نفسه معرضًا للعالم الخارجى وضوء الشمس .. »

وصلنا إلى الفيلا الساكنة فى الظلام ..

لم أتغيب كثيرًا لكن ..

ترى هل عادت تلك الكائنات ؟

أوقفت السيارة والمحرك دائر فى أكثر بقاع الشارع إظلامًا .. وترجلت حاملاً الكيروسين .. قلت لـ (عزت) الذى ظل غير قادر غير راغب فى المغادرة :

ـ « سوف تقف بجوار السيارة وتراقب الطريق .. عندما ترى سيارة تقترب أو رجل شرطة ينوى خراب بيتى ، فعليك أن تصدر صوتًا ينذرنى .. كلهم فى القصص يصدر صوت البومة .. أعتقد أنه يصلح .. »

قال فى ضيق :

ـ « لا أعرف صوت البومة .. »

ـ « إذن أصدر صوت (عنَاق الأرض) ..! »

وقبل أن يرد كنت أدلف عبر البوابة الصغيرة المواربة إلى الحديقة ..

لو صح تقديرى فلن أجد خفيرًا هنا .. أى خفير يقبل حراسة هذا الكابوس ؟.. يبدو أن هناك من يرتب مراسم الثلاثاء لكنه لا يقيم فى الفيلا .. على الأقل لن يمسك بواب نوبى غاضب بتلابيبى ..

الحديقة مظلمة ساكنة .. كل شجرة تصلح كى تكون وحشًا يمد ذراعيه المخلبيتين نحوك .. لكننى لا أجسر على استعمال الضوء ..

وصلت إلى أبعد ركن سمحت به شجاعتى .. هناك ركن مظلم تمامًا فلا أجسر على الدنو منه .. لا أعرف ما ينتظر هناك ...

بدأت أسكب الكيروسين فى هستيريا .. إن العقل يتخلى عنى .. إنه الذعر .. إنه الـ panic كما تعبر الكلمة الإنجليزية ..

بسرعة .. بسرعة ..

أسكب الكيروسين فى كل مكان وأنا أتقدم نحو البوابة التى دخلت منها ..

هذا الصوت ؟؟؟؟

صوت (عنَاق الأرض) !.. هل هذا صوته أم هو تصور (عزت) الأحمق لصوته ؟...

كنت قد وصلت إلى الخارج فطوحت الجركن ، ثم أشعلت عود ثقاب وطوحت به فى اتجاه ما سكبته .. لحظة ثم بدأ الوهج الأزرق الخافت ... يزحف ببطء ...

ابتعدت بضعة أمتار عن سور الفيلا ونظرت إلى حيث كانت السيارة .. أين (عزت) ؟..

هذا أسخف وقت يقرر أن يفرغ فيه مثانته ، والأسوأ أن يفعل هذا فى مكان عام .. هذا ما افترضته ولم أره ..

ونظرت إلى اللهب الذى بدأ يشتد ثم يتمسك بقاعدة أقرب الأشجار لى ..

هل أفر الآن أم أراقب ما تم ؟... كانت قدماى تعملان بقانون خاص بهما ، ولم تكونا على استعداد للرحيل من دون أن تعرفا ما تم يقينًا ..

فجأة رأيت جسمًا ملتهبًا يخرج من جذع الشجرة .. الفتحة التى تسكنها السناجب فى القصص المصورة .. هذا سنجاب غريب نوعًا لا يوحى بجو أفلام (ديزنى) ..

إنه يثب ثم يتدحرج على الأرض كرة من النيران .. لا أستطيع الحكم على حجمه لكنه بدا لى فى حجم كلب كبير ..

ورأيت شجرة أخرى تشتعل ويثب منها شىء مماثل ..

كانت هذه هى اللحظة التى قررت فيها أن الخطر مزدوج .. خطر ما بالحديقة وخطر الناس الذين سيرون ما حل بالحديقة .. لقد اقتنعت قدماى وقررتا أن منطقى سليم ..

هكذا اندفعت إلى السيارة ..

أين (عزت) ؟.. لا يمكن أن يكون بهذا الغباء .. توقعت أن يكون بانتظارى متحفزًا مشدودًا كوتر القوس ، لكنه ليس هنا . أعتقد أن التفسير يختلف عن كونه أحمق ..

ثمة شىء حدث له .. شىء مخيف على الأرجح ..

نظرت حولى ملهوفًا .. نظرت داخل السيارة . لا أثر له .. الوهج يتعالى والنيران تترقرق كبحيرة ملعونة ..

وثبت إلى السيارة وأدرت المحرك ..

لو كان غبيًا فهو يستحق ما يحدث له .. فليقبض عليه أو فليعد من المعادى مشيًا على قدميه .. أى شىء .. أما لو كان شىء قد حدث له فلن أعرف إلا إذا ابتعدت ..

وانطلقت بالسيارة إلى شارع جانبى ..

وسرعان ما كنت أترك الحى الهادئ خلفى ..

* * *

19ـ النســـاء ..

لم يظهر (عزت) حتى الصباح ..

رحت أقضى الساعات فى نشاط مثمر فعلاً ألا وهو قضم أظفارى ..

لا أستطيع إبلاغ الشرطة .. ماذا أقول ؟.. لقد فقدته ونحن نحرق تلك الفيلا بالمعادى ؟ لو أبلغت عن اختفائه فلن أذكر تفاصيل .. فما قيمة هذا إذن ؟

هم لا يعرفون ما أعرف ، وبالتالى من المستحيل أن يبدءوا بداية صحيحة ..

القصة كما يلى : لقد انفرد أحد تلك الكائنات بـ (عزت) وهو يقف جوار السيارة ، وعلى الأرجح أطلق (عزت) صيحة عناق الأرض ـ التى لا يعرف كيف تكون ـ قبل أن يحمله الشىء مبتعدًا ..

فإلى أين ؟

أمسكت ورقة ورسمت عليها خطوطًا .. ما يشبه خرائط السريان المنطقى التى يرسمها المهندسون ومبرمجو الكمبيوتر .. بداية الخيط هى (عفاف) .. (عفاف) تحولت إلى (ليليث) وصارت معها القلادة .. ثم قتلت زوجها .. من حولها لهذا المسخ ؟.. واحدة من تلك النسوة فى المعادى .. هل هى (ماهى) ؟.. أم (صافى) ؟.. أم (مى) ؟

هاته النسوة لم يأتين من فراغ .. هناك من حولهن .. إذن الخيط يبدأ من مدام (ليلى) التى لم ألقها قط ، والتى حولت الفيلا إلى مأوى لمصاصات الدماء فى الليل وقاعة اجتماعات لكارهات الرجل فى أيام الثلاثاء ..

إذن لا مفر إذا ما أردت البحث عن بداية الخيط من مقابلة النساء ..

أنا أعرف شقة (ماهى) ولسوف أزورها ..

إنها لزيارة كريهة ، لكن منذ متى أعتبر زيارة أى شخص نشاطًا محببًا ؟

* * *

كما قلت كانت (ماهى) امرأة ممتلئة .. على قدر من الجمال لكن عدوانيتها لا تخفى على أحد ، ولربما تضفى عليها عنصر جاذبية ما .. جاذبية النمور التى لا تقاوم ..

وكما قلت كانت شخصيتها أقوى وسنها أكبر من (عفاف) ..

لقد زرتها على غير موعد ، وقد أعددت فى ذهنى برنامجًا تافهًا لتفسير غرض الزيارة .. أولاد (عفاف) ... واجبنا .. أم (إبراهيم) ... إلخ .. كلام سوف أحسن قوله مع تغطية مواضع الضعف فى قصتى بالكثير من الـ ..... م م .. هم م م !

فى كتاب للناقد الأمريكى (والتر كير) يقول إن كتاب المسرح لم يعودوا يتعبون أنفسهم بالكتابة ، لهذا بدلاً من أن يذكر كاتب المسرحية على لسان بطلته حوارًا يوحى بالحب مع التردد يكتفى بأن يقول :

مارى (بلهجة ذات معنى) : أنا لا أرى هذا ..

فيرد البطل الذى يجب أن يقول كلامًا يوحى بالتجاهل القاسى :

شارل (بلهجة ذات معنى) : أما أنا فأرى ذلك ..!

هكذا تصلح (لهجة ذات معنى) هذه لسد ثغرات التأليف وتلقى بعبء كل شىء على الممثلين .. وأنا أؤمن أن الـ (مممم) واللعثمة يمكن أن تداريا أمرى كمؤلف أعذار فاشل ..

فتحت لى الباب فبدت فى عينها نظرة نارية ، سرعان ما حولتها إلى ضحكة لكن التوحش لم يختف ..

ثم دعتنى إلى الدخول ..

دخلت وأنا أقول شيئًا عن محاولتى الاتصال لأخذ موعد وفشلى فى ...

هنا وجدت الشلة كلها بالداخل .. (مى) و(صافى) وبعض الوجوه التى كنت أراها فى اجتماعات المعادى .. لنقل إن العدد كان خمسًا أو ستًا ..

المهم هنا هو أن أكثرهن كن يضعن ضمادات على أذرعهن أو وجوههن !

قالت لهن بطريقة تمثيلية :

ـ « دكتور (رفعت إسماعيل) .. صديق (عفاف) .. »

قلت مصححًا :

ـ « صديق زوج (عفاف) رحمه الله .. »

ـ « ليرحم الله الجميع .. »

جلست النساء يرمقننى بعدوانية واضحة .. بالفعل هناك الكثير من الحروق ... لا شك فى هذا وله تفسير واحد .. لكن هل يعرفن دورى فى القصة ؟

قلت فى براءة :

ـ « خيرًا ؟.. أرى الكثير من الضمادات ؟ »

قالت إحداهن وهى تشعل لفافة تبغ :

ـ « قدر ولطف .. »

وقالت (ماهى) :

ـ « ألم تسمع حقًا ؟.. ذلك النادى فى المعادى قد شب فيه حريق .. لولا ستر الله لاحترقنا جميعًا . »

ـ « هل تعنين أنكن اجتمعتن هناك بعد اجتماع الثلاثاء ؟ »

قالت إحداهن فى ثبات :

ـ « إنه ملتقانا .. ليس الثلاثاء إلا ندوة عامة .. »

وقالت (ماهى) وهى تجلس :

ـ « قدَر ولطف .. طبعًا تعتقد الشرطة أن هناك فاعلاً .. هناك جركن كيروسين فارغ .. لكنى أعتقد أنه لا يجب أن نلقى كل مسئولية على فاعل مجهول .. هناك القضاء والقدر .. كان مكتوبًا أن يشب حريق فى هذه الساعة بالضبط .. »

حقًا !.. يا للإيمان !... غريب أن تسمع هذا الكلام من فم مصاصة دماء .. أعتقد أن فيه نوعًا من السخرية .. نوعًا من التهديد ربما ..

هنا سمعت إحداهن تئن .. نظرت إلى مصدر الصوت فوجدت إحداهن تكتم صرخة عن طريق منديل دسته فى فمها .. ونظرت لها الأخريات بما معناه : اخرسى يا بلهاء !

ليس الأمر مقصورًا على بعض الحروق إذن .. هناك من فقدن صديقاتهن ..

أو فقدن بناتهن ؟؟؟؟

* * *

فجأة رأيت جسمًا ملتهبًا يخرج من جذع الشجرة .. الفتحة التى تسكنها السناجب فى القصص المصورة .. هذا سنجاب غريب نوعًا لا يوحى بجو أفلام (ديزنى) ..

إنه يثب ثم يتدحرج على الأرض كرة من النيران .. لا أستطيع الحكم على حجمه لكنه بدا لى فى حجم كلب كبير ..

* * *

ـ « وماذا عن الأطفال ؟.. إن أم (إبراهيم) .. م م .. لا أعرف له أقارب .. م م .. ربما قالت لك (عفاف) شيئًا .. م م »

هراء كثير من هذا النوع .. فقالت لى (ماهى) :

ـ « لا أحب أن نتكلم عن (عفاف) باعتبارها الفقيدة .. هى اختفت لكنها ستعود .. لهذا أنا أحافظ على الأطفال فى غيابها لكنى لا أحاول لعب دور أكبر .. لن أتبناهم لو خطر لك هذا .. »

هززت رأسى موافقًا ...

فى هذه اللحظة دخل المكان فتى يحمل صينية عليها قدح من القهوة .. طبعًا . لابد من خادم ذكر هنا .. رفعت عينى فأدركت أنه ذلك الفتى الوسيم الذى يقوم بخدمتهن فى النادى ...

نظر لى نظرة ذات معنى وهز رأسه ثم وضع الطبق أمامى مع كوب ماء بارد وابتعد ...

رفعت القدح وعلى الفور رأيت تلك القصاصة الورقية المطوية التى وضعت بعناية تحت القدح .. ورفعت رأسى فوجدت النسوة جالسات على الأريكة المواجهة يتهامسن وقد بدت عليهن الجدية .. هكذا فتحت القصاصة بلحظة واحدة وبإصبع واحدة وألقيت نظرة :

ـ « بعد القهوة أطلب دخول الحمام !! »

وفى اللحظة التالية كانت القصاصة فى كفى المغلقة .. ورحت ارشف القهوة ..

ماذا سيقدمه لى ؟.. معلومات طبعًا .. وعلى الأرجح إنذارًا ما ..

فرغت من القهوة فنهضت وقلت بتهذيب بولغ فيه وأنا أنظر للأرض :

ـ « سيكون هذا وقحًا .. لكنى بالفعل أرغب فى معرفة مكان الحمام هنا .. »

ـ « لماذا ؟ »

ـ « ليس لتعلم قيادة السيارات .. أريد الحمام لأسباب فسيولوجية قوية .. »

همسة خبيثة ما مع ضحكة رقيعة خافتة ، وأشارت لى نحو الممر الجانبى ..

كانت شقة صغيرة أنيقة تم إعداد ديكورها بعناية .. وقد كان ستار أحمر يسد الممر ، فأزحته جانبًا .. وفى نهاية الممر رأيت ذلك الفتى يقف فى مطبخ صغير على الطراز الأمريكى وهو يقطع بصلاً بالسكين .. كيف عرفت أنه بصل ؟.. لأنه لم يكف عن البكاء والتمخط ..

سألته بصوت مسموع :

ـ « الحمام لو سمحت .. »

فأشار إلى غرفة على جانب الممر ، ثم رفع إصبعه إلى شفتيه كى أسكت .. ومن دون كلمة واحدة تقدم ليفتح باب الغرفة الواقعة أمام الحمام بالضبط .. وأشار لى كى أنظر وهو لا يكف عن استنشاق المخاط ..

وقفت على باب الغرفة ونظرت ..

للحظة لم أتبين شيئًا بسبب الظلام ..

ثم رأيت ...

رأيت غرف نوم نساء مهملات من قبل ، لكن هذه تفوقت عليها جميعًا ..

إذن هؤلاء النسوة يقمن هنا إقامة كاملة .. لقد أحرق شخص ما الأشجار التى كن ينمن فيها .. وهذا الشخص أعرفه ... فهل يعرفنه ؟

لن أصف لك ما رأيت .. لا أحب وصف هذه الأشياء .. لكن الأشلاء المتناثرة تدل على أنهن يأتين بفرائسهن هنا أحيانًا .. أما هذه الأشياء المتناثرة فملاءات تم تدعيمها بالنشاء وعجين الورق لتتخذ شكل فجوات ... توابيت بدائية تسمح لكائن بأن

ينام فيها .. عش بدائى جدًا .. بيولوجى جدًا .. تشعر بأنك رأيته من قبل فى أى بيت عقارب أو ملجأ صراصير ..

كانت رائحة الغرفة لا تطاق لذا استدرت لأدخل الحمام .. وأنا اتحامل على قدمى ..

شهيق عميييق .. يجب أن أسترد هدوئى السابق .. بعد ما غسلت وجهى نظرت لصورتى فى المرآة ..

أنا الآن فى شقة واحدة مع هذه الغيلان العبرية ..

هل يسمحن لى بالمغادرة ؟

خرجت من الحمام فوجدت الفتى يدس ورقة صغيرة أخرى فى يدى ثم عاد إلى المطبخ دون أن ينطق حرفًا ..

وهكذا خرجت إلى الصالة ..

نظرت إلى الأرض كى لا أرى هذه الوجوه التى أعرف الآن جيدًا ما تعنيه ..

وقلت بتهذيب مبالغ فيه :

ـ « شكرًا على الحفاوة ، لكن لابد من أن أرحل الآن .. »

قالت (ماهى) وهى تنظر لوجهى متفحصة :

ـ « هل انت على ما يرام ؟ »

ـ « بالفعل .. أنا أبدو شاحبًا مريضًا عندما أرى سيدات جميلات .. »

لم تضحك أو تعلق .. فقط قالت إحداهن :

ـ « هكذا الرجال .. ينثرون عبارات الغزل وسط الكلام بلا داع ولا معنى .. فقط على سبيل رمى الشباك لعلها تلتقط شيئًا .. لم تقل (سيدات ذكيات أو مهذبات أو لطيفات) .. الجمال هو كل شىء وهو كل ما ترونه فى النساء .. »

لم اكن مستعدًا لمناقشة (تمكين المرأة كمعيار للنمو البشرى) مع تلك المسوخ ؛ لذا اتجهت إلى الباب وفتحته وخرجت .. أغلقته خلفى كى لا تتبعنى السيدة (ماهى) وتتفحص وجهى ..

ترى ماذا تحتويه الورقة ؟

* * *

20ـ تســـــل ..

> « أنا سجين هنا .. مذعور تمامًا .. إنهن يراقبننى جيدًا .. لكنى سوف أتمكن من الفرار اليوم عندما يرسلننى فى مأمورية .. قابلنى غدًا الخميس عند منتصف الليل فى فيلا المعادى .. سوف أخبرك كيف تصل لمدام (ليلى) وصديقك .. »

قرأت الورقة مرتين ، وراق لى أن الفتى يستعمل ضمير المثنى ونون الوقاية بحذق (إنهن يراقبننى يرسلننى) .. يبدو أنه حسن التعليم .. ثم طويتها ورحت أفكر ..

بالفعل شعرت أن هذا الفتى سجين فى هذا البيت .. لو كان بريئًا ـ وأنا ميال إلى هذا الاحتمال ـ فلابد أنه يعيش فى كابوس مقيم .. يعنى بمجموعة من مصاصات الدماء وينظف لهن غرفتهن ، وهو كأية جارية فى قصر (تيمور لنك) غير قادر على الفرار ..

إنه يعرف الكثير ، ولا شك فى أن التخلص منه صار محتومًا بالنسبة لتلك النساء بمجرد ألا يحتجن إليه ..

كان الخميس هو اليوم التالى ؛ لذا قررت أن أنتظر ..

فقط رحت أعمل خيالى قدر ما استطعت كى أعرف ما يمكن أن أواجهه وكيف أتقيه ..

لا أعرف يقينًا ، لكنى بحثت فى كتبى حتى قرأت كل ما دون عن أسطورة (ليليث) ، كما بحثت عن نسخة (الفردوس المفقود) لـ (ميلتون) ... تلك الملحمة الثانوية الحديثة التى تحاول أن تحذو حذو الملاحم القديمة .. إنها تحكى عن (ليليث) وهى مليئة بالخرافات طبعًا وتصطدم بما نعرفه دينيًا بشكل واضح ، لكنها قد تقدم لى بعض النقاط ..

علقت على أكثر من جدار فى شقتى لفظة (سينوى) . لا أعرف إن كانت هى ما أنقذنى فى تلك الليلة أم لا ، لكنى لن أترك احتمالاً بلا تجربة ..

إنه الخميس ..

منذ بداية اليوم تتقلص معدتى توترًا ...

وعندما اقترب منتصف الليل حملت حقيبتى واتجهت إلى باب الشقة .. غير أننى لم أنس أن أجرى بعض الاحتياطات السرية .. ما هى ؟... إذن كيف تكون سرية لو أخبرتك بها ؟.. على كل حال اتصلت بالأسطى (بدر) ليقسم لى على المصحف أنه لن يخذلنى ...

لا أعرف إن كنت سأعود أم لا .. لكنى أعرف شيئًا واحدًا .. يجب أن أكون فى المكان الذى يوجد فيه (عزت) .. تحت الأرض أو فوقها .. أنا المسئول عما حدث له إن كان حدث له شىء ..

* * *

لم يبد لى الأمر مختلفًا عندما اقتربت ..

لا أعتقد أن الحريق أحدث ضررًا إلى هذا الحد ..

القمر ساطع والرؤية واضحة ، لهذا عندما دنوت أكثر رأيت أن الحديقة تحولت إلى شىء مرعب .. بالفعل تكفل الحريق مع جهود رجال الإطفاء فى تحويلها إلى مستنقع يختلط فيه الرماد بالماء . والفوضى العامة فى كل مكان ... الأشجار صارت نسوة عجائز يلبسن الأسمال وينظرن للقادم فى ريبة ..

لكن البيت سليم لم يمس .. هذا متوقع .. لقد أبلغ الجيران المطافئ فجاءت قبل أن تصل النيران للبيت ذاته ..

لابد أن هذه الكائنات التى احترقت تفحمت سريعًا فلم يفهم أحد حقيقة وجودها ..

درت حول السور الحديدى ببطء كما فعلت من قبل .. وفى النهاية وصلت تلك الفرجة .. تلك البوابة الصغيرة التى اجتزتها عندما أشعلت النار بالداخل ..

دخلت ..

فى هذه المرة لم يعد للأمر طابع اقتحام التابوو .. بل أنا متسلل كأى واحد فضولى آخر دخل هذه الفيلا .. لقد انتهكت سريتها المقدسة .. الحريق جعل لها طابعًا عامًا ..

أين هو ؟

وفى الظلام رأيته .. كان واقفًا تحت شجيرة محترقة وهو يمسك كشافًا لم يفتحه .

ـ « د. (رفعت) ؟ »

كان صوته خائفًا .. سرنى هذا .. عندما أعمل مع أشخاص مذعورين أكثر منى أشعر بأننى على ما يرام .. ضعفهم يمنحنى ثقة ...

دنوت منه وسط الأرض (السبخة) وقلت بصوت لم أتعمد إخفاءه :

– « نعم .. على فكرة لم أعرف اسمك بعد .. »

– « (تامر) .. »

وهو اسم شبابى جدًا كما ترى .. وقفت جواره أنظر للأشجار المحترقة من حولنا .. يبدو أنك لو اتكأت إلى شجرة واحدة لانهارت ..

سألته فى الظلام :

– « هيا .. قل لى ما تعرف .. »

قال بصوت كالفحيح :

– « أولاً سأقول لك ما يعرفن .. كلهن يعرفن أنك من حرق هذه الأشجار .. »

– « قل لى شيئًا جديدًا .. توقعت هذا من نظراتهن وطريقة كلامهن .. بالمناسبة كيف تعيش مع هاته النسوة ؟ »

– « لقد استغرقت كثيرًا حتى أعرف الحقيقة .. فى البداية كنت أعمل فى هذه الفيلا بتكليف من مدام (مها) ... »

– « (ماهى) .. »

– « نعم .. ينادينها (ماهى) .. كانت هى التى تصدر لى التعليمات وكنت أتقاضى أجرى منها ولم يكن العمل كثيرًا .. فقط تقديم الشراب والطعام لهن فى اجتماعاتهن .. ثم حدث الحريق فطلبت منى أن أعمل فى دارها .. هناك عرفت الحقيقة .. إن هؤلاء النسوة لا يخفين حقيقتهن .. وصدرت لى الأوامر أن أكتم السر وإلا فأن دمى لا ثمن له .. ووجدت أننى مجبر على البقاء . لن أخرج أبدًا .. أنا عبد لهن لا أنال أجرًا إلا طعامى ، وأتلقى الضربات والإهانات .. عندما تهينك امرأة فبوسعك أن ترد ، لكن أن يهينك كائن له أسنان كالخناجر وله لسان يشبه الممص فهذا يجعلك عاجزًا كطفل .. كنت مذعورًا إلى حد أننى لم

أحاول الفرار .. كان الأمر يفوق الواقع .. لن تحمينى الشرطة .. لن يحمينى أن يوقعن تعهدًا بعدم التعرض لى فى أقرب قسم شرطة .. إنهن فوق الجدران وفوق الزمن وفوق القانون .. كن يعرفن أننى لن افر ولن أجسر على ذلك ، لذا كن يتكلمن بحرية .. وعرفت الكثير جدًا .. فلما ظهرت أنت فى دارهن صممت على أن أنذرك .. وصممت كذلك على أن أفر من غرفتى التى أنام فيها .. هبطت على المواسير وما أعرفه هو أننى لن أعود أبدًا .. »

كأن الأحمق يملك الخيار ..

ثم قال وهو يشغل كشافه ويخفى عدسته بقبضته كى يكون الشعاع رفيعًا واهنًا لا يراه أحد بالخارج :

ـ « الخبر الثانى هو أن مدام (ليلى) هنا .. »

ـ « وصديقى ؟ »

ـ « صديقك ؟.. لا أعرف أين صديقك لكنى متأكد إنه معها .. »

ـ « وأين المدام هذه ؟ »

أشار بالكشاف إلى إحدى الأشجار المتداعية .. استطعت أن أرى تلك الفتحة قرب قاعدتها .. فتحة كبيرة تسمح بمرور إنسان ..

قلت له وأنا أرمق الفتحة الموجسة :

ـ « لا يبدو الأمر مريحًا .. »

ـ « إن هناك شبكة ممرات تحت هذه الحديقة وهى تقود إلى مكان المسخ .. سوف ننزل معًا .. »

دنوت من الفتحة وسلطت شعاع كشافى لأسفل .. هناك درجات فعلاً .. ليست درجات بل منخفضات صنعت فى الوحل والحجارة لتسهل النزول لأسفل ..

هل يحتاج الأمر إلى أينشتاين ليعرف أن هذا كمين ؟

الفتى نفسه لا يريحنى .. المفترض أنه خائف مذعور كالفأر لكنه الآن صار أشجع من أسد .. لا شىء يرغمه على العودة .. لا شىء يرغمه على النزول معى .. فلماذا صار فجأة مولعًا بمعاونة أخيه الإنسان ؟

وأنظر للفتى متمليًا فى الضوء الخافت ..

هذه الملامح الجميلة الناعمة الخالية من الرجولة فى وجهه الأمرد ... هناك رجل وسيم لأنه رجل فعلاً مثل (جيمس ستيوارت) و (رشدى أباظة) ، وهناك رجل وسيم لأن فى ملامحه شيئًا من ملامح الأنثى على غرار (رودلف فالنتينو) الممثل الإيطالى القديم .. لكن هناك افتراضًا آخر .. لماذا لا يكون الفتى أنثى ؟.. مجرد أنثى قصيرة الشعر ذات صوت خشن قليلاً ؟..

هذا يضع النقاط على الأحرف ، وتكون هذه كلها مجرد خدعة سخيفة من النساء .. منذ البداية كانت هناك فتاة من بينهن تتظاهر بأنها رجل ..

الورقة التى قدمت لى كانت بعلمهن جميعًا ، وقد يعنى هذا أن حفل الاستقبال جاهز ..

طبعًا لا يسمح الوقت بإجراء تحليل بحثًا عن جسيم (بار) أو الكروموسوم Y .. لا يسمح بإجراء أشعة صوتية للبحث عن المبيضين أو عد تفرعات الشريان الحرقفى الداخلى ..

هل أفر من هنا أم أقامر وأجرب ؟

سأجرب ...

وهكذا أشرت له كى ينزل ..

وتوكلت على الله ، ونظرت حولى .. لا أحد يرانا ... هكذا اندسست فى الفتحة بدورى ..

* * *

12ـ المواجهــة ..

لا أذكر كم مرة في حياتي هبطت فيها درجات مظلمة على ضوء كشاف ..

لكن هذه المرة تختلف .. لأنني لا أكن ثقة للشخص الذي ينزل معي .. ثم أن النزول عبر جذع شجرة أمر رهيب نوعًا ..

* * *

الأمر لا يصدق لكنها الحقيقة .. فعلاً أنا الآن أمشي في نفق تحت أرض الحديقة ..

كان أول ما طالع نظري هو تلك الجثة المحترقة .. جثة شيء أقرب إلى عقرب كبير .. صرخة مفزعة على الوجه المشوه ومخالب تحاول أن تقبض على شيء .. وذيل تقلص بالحرارة .. إن المحترقين قد يتخذون وضع الملاكم الشهير بسبب تجلط بروتين العضلات وقصرها .. يبدو أن هذه الكائنات عندما تحترق يتقلص ذيلها ..

لكن .. لماذا لم تتحول هذه الجثة إلى رماد وتتلاشى ؟.. في كل مرة أدرك أنني أجهل الكثير عن هذه الكائنات .. لا توجد قواعد ثابتة للعبة ...

أواصل المشي في الممر الرهيب .. ثم يبدو لي من المشقة أننا نصعد ..

في النهاية نخرج ...

لقد صرت على يقين من أن الفتى ليس نقي النفس .. لماذا لم يصبه الذعر أو يندهش من مرأى الجثة ؟.. ثم كيف بلغ هذه الدرجة من العلم وهو يزعم أن ما يعرفه عرفه من استراق السمع ؟.. هل استراق السمع إلى محادثة يجعلك قادرًا على المشي في مكان كهذا ؟

لكن المشهد الذي رأيته لا يصدق ..

إنني في ساحة واسعة .. سهل ممتد على مرمى البصر تملؤه خرائب غريبة الطابع ..

لون السماء قرمزي أرجواني موجس ..

ـ « أنت فى عالم مختلف .. أنت فى عالم (ليليث) ومن هذه الفتحة كانت تدخل وتخرج إلى عالمنا .. »

هناك يقف الفتى الذى اقتادنى إلى هنا ..

والأرض غريبة مكونة من أحجار صلدة .. تذكر أن الصلادة تختلف عن الصلابة ... الصلادة هى قابلية الفلز للخدش ... وقد كانت هذه الأرض كذلك ..

أشار الفتى إلى مجموعة من الخرائب تبدو أقرب إلى حجارة متراكمة فوق بعضها ، وهمس :

ـ « إنها هناك .. أنا لن أتبعك .. »

ونظرت من حولى فرأيت مجموعة من بنات آوى تقف ملتفة تنظر لى .. ومرق ثعلب من نوع (الفنك) مبتعدًا .. إن هذا هو وسط (ليليث) فعلاً ... الأساطير تحكى عن أنها تعيش فى الخرائب بين الثعالب وبنات آوى ..

ثم سمعت الزئير يتعالى من وراء الخرائب ..

فى البداية ارتج على .. ثم بدأت أفهم ..

من وراء الخرائب أرى الشىء يرتفع ثم يهبط ... يرتفع ثم يهبط .. والزئير يتعالى ..

لا أريد أن أرى لكنى خمنت أن هذا الشىء هو الزوج الغاضب الذى انتظرنى طويلاً ..

(أزيموديوس) ...

لو كان تصور القدماء له دقيقًا فإن هذا وحش ذو ثلاثة رءوس يمتطى أسدًا .. له ذيل ثعبان وقدما إوزة .. وهو غاضب أو جائع أو كلاهما ... أى مسخ هذا ؟... لا اريد أن أراه ..

سمعت حفيف الجناحين من خلفى فاستدرت ..

ربـاه ..!..

لم يكن الفتى امرأة مدسوسة على لتقودنى إلى الكمين .. كنت أحمق عندما تصورت هذا ..

لقد كان هو (ليليث) ذاتها !!

* * *

إذن منذ البداية كانت مدام (ليلى) موجودة تراقب كل شىء .. كانت هى الفتى الذى يقدم لنا القهوة أثناء الاجتماعات ، وكانت هى الخادم الذى يعنى بالنسوة فى شقتهن ..

كانت هذه طريقتها لمراقبة الأمور .. وأعترف أنها طريقة بارعة ..

كان وصفها شبه دقيق فى الأساطير وقد كنت أحمق عندما تصورت أنها واحدة أخرى من الكائنات التى قابلتها فى هذه المغامرة .. اليوم أستطيع أن أعلنها لكل علماء الأساطير : (ليليث) هى (لاماتسو) ..

لقد كانت الهول مجسدًا ..

لن أصفها لك لأن هذا ليس فى وسعى .. فقط أذكر الفم .. نعم .. لا يمكن أن تنساه بسهولة .. ينفتح وينغلق بطريقة تذكرك بغالق الكاميرا .. مجموعة من البتلات أو الصفائح تتباعد ليخرج منها حشد من الممصات تفتش فى كل اتجاه عن فريسة ما ، ثم تعود لمخبئها ...

هذا كل ما أستطيع قوله لأنى كنت فى حال تستطيع أن تتخيلها .. وقلت لنفسى إن هذا كابوس بالتأكيد .. ليس من السهل أن أرى مشهدًا كهذا لذا هو على الأرجح من بنات خيالى ..

وقفت ألهث بعض الوقت ودسست قرصًا تحت لسانى ، ورحت أتلو آية الكرسى والمعوذتين مرارًا ..

ما كان جدوى تلك التمثيلية السخيفة إذن ؟.. كان بوسعك الانتهاء منى فى ثوان .. سواء فى بيتى أو فى الفيلا .. لماذا إطالة الوقت ؟

كأنها سمعت أفكارى جاء صوتها المتحشرج مناسبًا جدًا لمنظرها .. لكنك لا تعرف كيف يخرج من هذا الفم العجيب :

- « الانتقام لبناتى أيها الفأر .. لن يشبعنى إلا موتك عدة مرات .. أنت أحرقت بنات (ليليث) .. أحمق ككل رجل آخر .. »

أنا الآن أعرف الإجابة .. ربما متأخرًا جدًا ...

هناك من جاء بالقلادة الرهيبة إلى مصر ومعها جاءت (ليليث) وبدأت تكون مجتمعها الخاص ... مجتمع كارهات الرجال الذى يتحول بسرعة إلى مجتمع مصاصات الدماء ..

رائحة عبرانية ؟... لِمَ لا ؟.. هل ثمة إصبع يشير إلى إسرائيل ؟.. ربما أحد الحاخامات المتحمسين الذين يعتبرون العرب ثعابين ؟.. كل هذا وارد لكن لا أحسبها ستخبرنى به ..

قلت بصوت عال :

ـ « أنا لن أموت بهذه البساطة .. أنا مصمم على افتداء حياتى وصديقى .. لقد وجدت القلادة مع (عفاف) بعد احتراقها ولم أبقها معى طويلاً .. إنها مع صديق لى ولسوف يتخلص منها إذا لم أعد قبل الفجر .. عندما تختفى هذه القلادة لن تستطيعى تكوين مجتمعك هذا .. أعرف أنها مهمة وأن فتياتك يحملنها معهن بالتناوب .. ربما تستمدين وجودك منها .. كل ما أعرفه هو أنك لن تتركيها تذوب .. »

قالت وهى تدور حولى بتلك الحركة السريعة :

ـ « أتحسبنى غير قادرة على الظفر بها ؟.. إن القلادة تدعونى إليها حيثما كانت .. »

قلت وأنا أتراجع للوراء كى لا يحتك بى ذيلها :

ـ « هل تصلين بالسرعة المناسبة ؟.. إن الفجر يقترب .. »

ثم فتحت القميص لأكشف صدرى وقلت :

ـ « لقد سطرت كلمة (سينوى) مئات المرات على صدرى .. صدقينى لم يكن هذا سهلاً لكنى فعلته .. أما الاحتياط الثالث فهو .. »

وفتحت زرين آخرين .. هنا أطلقت زمجرة فحيحية مفاجئة كتلك الزمجرات الشيطانية التى تطلقها القطط عندما تهددك ..

كانت صورة (بازوزو) مثبتة بالشريط اللاصق إلى بطنى ...

ـ « هل ترين ؟... أعتقد أنك بحاجة إلى من يزيل عنى هذه العلامات الواقية قبل أن تفتكى بى .. »

كنت لا أؤمن بهذا الهراء ، لهذا احتفظت معى بمصحف ... لكنى أردت أن أنفذ الأسطورة حرفيًا .. أن ألعب معها بالقواعد التى قالت الكتب أنها لها .. لم أترك ثغرات على مستوى الأسطورة وعلى المستوى الدينى ..

احمرت عيناها حتى صارتا بلون الدم .. كأنها ثبتت ثمرتى طماطم بدلاً من محجرى عينيها .. ومن بين جفنيها انبثق الدم .. إن هذا المسخ احتفظ بالكثير من طباع الزواحف .. هذا الأسلوب يشبه أسلوب زواحف كثيرة ..

بالفعل مع غضبتها خرجت أفاع عديدة من شقوق الأرض وراحت تزحف مبتعدة ..

ورأيت (ليليث) تبتعد بسرعة البرق إلى ما وراء تلك الكومة من الحجارة ..

ترى هل كسبت المعركة ؟... ليس بهذه البساطة .. مستحيل أن أكون قد أخفتها ..

* * *

عندما عادت كانت تجر وراءها جسدًا منهكًا يئن ولا يقدر على التملص ..

تبينت على الفور من هذا التعس ..

(عزت) !

هتفت فى جزع :

ـ « لا تمسى هذا الفتى فلا ذنب له !! »

قالت بصوتها المتحشرج :

ـ « إن لم أستطع إيذاءك فلسوف ترى كيف أمزق صاحبك إلى أشلاء!.. لقد انتهت مهمته .. كان طعمًا لجلبك إلى هنا .. »

ومن فمها خرجت الممصات .. وامتدت ثلاثة منها إلى أوردة عنقه ..

صحت متوسلاً :

ـ « لا تفعلى !.. تذكرى أننى أتحكم فى مصير القلادة .. ! »

ـ « سوف أحصل على القلادة !! »

ووجدت نفسى على الأرض وهى تجثم فوقى بينما تلك الممصات تندفع نحو عنقى ، وهى تقول بصوتها المتحشرج :

ـ « لا تثق كثيرًا بلفظة (سينوى) ولا (بازوزو) أيها الفأر .. بوسعى أن أقضى عليك برغم ما أحطت به نفسك .. »

كانت ثقيلة خبيثة الرائحة .. وأدركت أنها قوية حقًا ..

هل هذا صحيح ؟.. هل تستطيع مقاومة ما حاولت أن أحمى نفسى به ؟

كل شىء يؤكد ذلك .. إننى .. إننى ...

فجأة أطلقت صرخة مريعة جديرة بها ..

وتناثر شىء دافئ غريب على وجهى ...

وسقطت (ليليث) جوارى وهى تئن وتتلوى لتكشف عن المشهد الذى توقعته .. (عزت) يقف وراءها وهو يوشك على أن ينقض عليها بالوتد المدبب مرة أخرى ..

لقد وجده على الأرض فتسلل وراءها وأولجه فى القلب مباشرة .. من الخلف ..

تدحرجت على الأرض لأخرج المطرقة الثقيلة من حقيبتى ، ثم زحفت إليها .. إلى ذلك الجسد المتلوى .. وصحت فى (عزت) أن يغرس الوتد ...

انغرس الوتد من جديد فى الصدر فرحت أهوى عليه بالمطرقة ...

لكن ذلك كان أشبه بالتحكم فى خنزير برى .. لقد تملصت كما يفعل المصارعون لحظة (لمس الأكتاف) فأسقطتنا على الأرض معًا .. الوتد فى صدرها بالكامل لكنها تنهض ... تنهض مترنحة كما يمشى الزومبى فى (فجر الموتى) .. وعدت ألعن الأسطى (بدر) فى سرى .. لقد تأخر .. تأخر جدًا ...

صحت فى (عزت) وأنا أنهض :

ـ « احترس وإلا هاجمنا ذلك (الأريموديوس) من الخلف !! »

قال وهو ينهض بدوره :

ـ « هل تعنى ذلك الشىء المريع ؟.. إنها تكبله بالسلاسل ..! »

الآن كانت (ليليث) قد دارت دورة كاملة والوتد فى صدرها ، ثم عادت لنا ..

بعصبية انتزعت الوتد من صدرها فتدفق بعض السائل الشفاف ، ورأيت بعينى الجرح يلتئم .. فجأة عادت الأنسجة تغطى ما كان تجويفًا قبيحًا ... المفترض مع مصاصى الدماء أن يتم كل شىء بسرعة .. الوتد .. الدق عليه .. قطع الرأس .. كل هذا فى ثوان وإلا التأم جرحه من جديد ...

لقد كانت فرصة عمرى وقد ضاعت ..

الآن تضحك فأرى الشيطان فى عينيها الحمراوين ...

إنها تتقدم منا ...

إنها تفح كالأفاعى ..

إنها ..

فجأة أصدرت فحيحًا وصرخت فى جزع :

ـ « القلادة !!

ومن دون سابق إنذار اندفعت جوارنا مغادرة المكان .. دفعتنى بقوة لا توصف فاصطدمت بـ (عزت) وسقطنا أرضًا .. وبينما أنا أقاوم الألم العظيم فى رأسى رأيتها تنساب كالثعابين مبتعدة ..

عندها فقدت وعيى ..

....

....

....

وعندما أفقت من إغماءتى وجدت (عزت) ملقى على الأرض على بعد أمتار ، وكان حيًا .. بنات آوى يحمن حوله بآذانهن الطويلة ، وثمة بومة تنعق فى مكان ما .. لكن لا (ليليث) .. لا (أزيموديوس) ...

دنوت منه وتحسست نبضه ..

سوف ينجو ..

سوف ينجو ...

* * *

خاتمة

عندما فرغ (عزت) من إفطاره عرفت أنه نسى كل ما حدث له ...

لقد كانت فترة غيابه سلسلة من الهلاوس وفقدان الوعى .. فقط يعرف أن شيئًا ضخمًا هاجمه وهو ينتظرنى خارج الفيلا ، وأنه فقد الوعى .. ثم كان يصحو من حين لآخر ليشعر بأن الثعالب تتشممه أو يرى خرائب يبدو من ورائها وحش له ثلاثة رءوس .. كل هذه كوابيس .. هو مؤمن بهذا .. ومن ضمن هذه الكوابيس أننى جئت لأنقذه ...

أما أنا فقد كنت أعرف ما حدث معى ...

عندما صارت الساعة الثالثة صباحًا دون أن أتصل بالأسطى (بدر) قام بوضع القلادة فى الفرن الذى يقومون فيه بتذويب الرصاص .. من المفيد أن يكون لك صديق مخلص من (الصنايعية) الذين عالجتهم من مرض مزمن .. كنت أعرف أننى أستطيع الوثوق به ، لكنى جعلته يقسم لى على المصحف

أنه لن يتجاهل طلبى ، ونقدته مبلغًا محترمًا من المال على أن أنقده مثله إذا نفذ تعليماتى ...

بدا له الأمر غريبًا لكنه افترض أن الأمر يتعلق بعمل سفلى ما لم يسأل كثيرًا .. وهكذا قام لى بخدمة العمر : ظل ساهرًا فى المقهى ليلة الخميس ، ولم يغلق الورشة بانتظار مكالمتى ؛ فإذا اتصلت به كان بها ويمكنه النوم .. أما إذا لم أتصل فعليه أن يذوب القلادة ...

أعتقد أنه فعل ذلك فى اللحظة التى كانت (ليليث) توشك على الهجوم ..

قال لى :

- « بينى وبينك دخنت الكثير من المعسل وشيئًا ما أعطانيه الولد (خميس) .. راحت على نومة .. لكنى استيقظت فجأة لأجد أن الساعة الثالثة والربع ... هرعت إلى الورشة وأخذت بيدى تلك القلادة ... لا أعرف إن كنت واهمًا أم لا .. لكنى رأيت مجموعة من الكلاب تحيط بالورشة وعيونها تتقد شررًا .. ربما

لم تكن كلابًا .. ربما كانت بنات آوى أو ثعالب .. لا أعرف .. ثم ألقيت بالقلادة فى الفرن وفى اللحظة ذاتها خيل لى أننى أرى امرأة شكلها مخيف تقف فى الورشة معى وتمد يدها تحاول منعى .. لا أعرف .. رأيتها لجزء من ثانية ثم تلاشت .. إما أن هذا هو تأثير السهر والصنف .. أو أن هذه القلادة فيها سر .. ربما هى بسم الله الرحمن الرحيم .. »

قلت له وأنا أربت على كتفه فى رفق وامتنان :

ـ « دعك من هذا .. لتنس الموضوع .. فقط تذكر أنك أنقذت حياتى .. »

أما لماذا لم أفعل هذا قبل المواجهة فالجواب سهل : كنت بحاجة لأن أبقى القلادة سليمة للمقايضة على (عزت) .. لو أدركت (ليليث) أن القلادة انتهت فلربما فتكت به .. وقدرت أن الساعة الثالثة تعنى أن المقايضة فشلت وإننى فى خطر حقيقى وهو ما حدث فعلا ...

هذه القلادة كانت تعنى الكثير لها كما هو واضح ..

وعندما تلاشى الخطر وجدت أنا و(عزت) أن بوسعنا العودة من ذات الطريق الذى جئت أنا منه ..

ترى هل رحلت حقًا ؟...

هل ماتت ؟

أعتقد أن الاحتمال الأول هو الأدق .. إنها تحاول البدء من جديد .. تحاول استعادة توازنها .. لكنها ستجرب هذا فى بلد آخر أو زمن آخر ..

بقى أن أقول إن النسوة اللاتى عرفتهن فى اجتماعات المعادى تفرقن ..

وحينما قابلت (ماهى) ذات مرة فى الشارع شعرت بأنها تغيرت كثيرًا جدًا .. وقد أخبرتنى بأنها ستتزوج بعد أسبوع .. لم لا ؟.. إن تجربة واحدة فاشلة لا تعنى الحكم على جنس الرجال كله .. ربما ليسوا جميعًا مجموعة من السفاحين والقتلة والأوغاد ..

شعرت بأنها نسيت كل شىء عن تلك الفترة .. ليس من مصلحة أحد تذكيرها بأن تمردها على الرجال كان يتضمن التسلل لحجراتهم ليلاً وامتصاص دمهم ..

* * *

قلت لأم (إبراهيم) وأنا أملس على رأس ابنه :

ـ « أعتقد أن عليك أن تتصرفى على أساس أن .. »

ثم تذكرت ان الطفل معى فطلبت منه أن يرحل ، فلما توارى قلت لها :

ـ « تتصرفى على أساس أن (عفاف) لن تعود .. »

قالت مفكرة :

ـ « ترى أين هى ؟.. داخل مصر أم خارجها ؟.. فوق الأرض أم تحتها ؟ »

قلت :

ـ « لن نحصل على إجابة .. سوف أساعدك فى إنهاء إجراءات الميراث .. إن الفقيد فعل كل شىء كى يحظى أطفاله بدخل محترم .. وهذا ما يجعلنا مطمئنين .. سيكون لديهم المال وستعطينهم أنت العناية والحنان .. »

رشفت ما تبقى من قهوتها وقالت :

ـ « كان الفقيد وغدًا !! »

ـ « بو ششش ش ش ش ! »

كان هذا صوت القهوة التى انفجرت من فمى فشرعت أجففها ، وأنا أقول :

ـ « معذرة .. نحن نتحدث عن (إبراهيم) .. ابنك ! »

قالت فى غل وهى تضع القدح :

ـ « وأنا أتحدث عنه كذلك .. نعم هو ابنى لكنه وغد .. لماذا يعتقد الرجل أنه بمجرد أن يجمع المال قد حقق المطلوب منه ؟.. ولماذا يترك كل التفاصيل المزعجة الأخرى

للمرأة ؟.. التربية والنظافة والطهى والغسيل .. كل هذا على عاتقها .. أما هو فيمرح خارج البيت كما يشاء مادام يعرف أنه سيناولها بعض الأوراق المالية التالفة لدى عودته ..

ثم أشارت لى بإصبع أتلفه النقرس وهتفت :

ـ « أنتم معشر الرجال تستحقون الجلد بالسياط ! »

كنت أشم رائحة مألوفة فى كل هذا ..

رائحة مألوفة ..

متى بدأت العدوى ؟

من أين جاءت ؟...

هل ما زالت (ليليث) فى مصر ؟

حقًا لا أعرف .. ما أعرفه هو أننى اكتفيت من هذه القصة ، ولن أجتاز هذا المدخل مرة أخرى ..

فلنأمل أن تكون السيدة أصيبت ببعض الخبال لا أكثر .. هذا يفسر الأمور ويريحنى .. مجرد خشونة من امرأة أنهكها المرض والمتلازمة X ..

لكن هذه قصة أخرى ..

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

اسمها (ليليث) .. هذا الاسم الرهيب يتكرر فى معظم الثقافات السامية .. لا يجب أن تذهب بعيدًا إلى رومانيا كى تقابل مصاصى الدماء .. إنهم قد يكونون هنا .. فى ذات الدولة .. فى ذات البلدة .. فى ذات الشارع .. فى نفس البناية .. ربما فى ذات الغرفة كذلك ...!!

فقط كن حذرًا .. لا تنم وحيدًا ولا تهمل غلق النوافذ والأبواب ..

اليوم يواجه (رفعت) خطرًا من طراز جديد ... القصة تبدأ بداية طبيعية أو شبه طبيعية ثم ....

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس من فرط الغموض والرعب والإثارة

● صدر من هذه السلسلة ●

1 - أسطورة مصاص الدماء .
2 - أسطورة النداهة .
3 - أسطورة وحش البحيرة .
4 - أسطورة آكل البشر .
5 - أسطورة الموتى الأحياء .
6 - أسطورة رأس ميدوسا .
7 - أسطورة حارس الكهف .
8 - أسطورة أرض أخرى .
9 - أسطورة لعنة الفرعون .
10 - أسطورة حلقة الرعب .
11 - أسطورة الكاهن الأخير .
12 - أسطورة البيت .
13 - أسطورة اللهب الأزرق .
14 - أسطورة رجل الثلوج .
15 - أسطورة النبات .
16 - أسطورة الناقاراى .
17 - أسطورة حسناء المقبرة .
18 - أسطورة الغرباء .
19 - أسطورة بو .
20 - حكايات التاروت .
21 - أسطورة عدو الشمس .
22 - أسطورة المينوتور .
23 - أسطورة رعب المستنقعات .
24 - أسطورة إيجور .
25 - أسطورة الجنرال العائد .
26 - أسطورة المواجهة .
27 - أسطورتنا .
28 - أسطورة آخر الليل .
29 - أسطورة الجاثوم .
30 - أسطورة بعد منتصف الليل .
31 - أسطورتها .
32 - أسطورة رفعت .
33 - أسطورة أرض المغول .
34 - أسطورة الشاحبين .
35 - أسطورة دماء دراكيولا .
36 - أسطورة الفصيلة السادسة .
37 - أسطورة الدُمية .
38 - أسطورة النصف الآخر .
39 - أسطورة التوءمين .
40 - وراء الباب المغلق .
41 - أسطورة فرانكنشتاين .
42 - أسطورة الكلمات السبع .
43 - أسطورة تختلف .
44 - أسطورة رجل بكين .
45 - أسطورة بيت الأفاعى .
46 - أسطورة طفل آخر .
47 - المنزل رقم (5) .
48 - المومياء .
49 - أسطورة العشيرة .
50 - فى جانب النجوم .
51 - أسطورة الرقم المشئوم .
52 - أسطورة ممله .
53 - أسطورة النبوءة .
54 - أسطورة العراف .
55 - أسطورة (###099) .
56 - أسطورة ملك الذباب .
57 - أسطورة المقبرة .
58 - أسطورة أرض العظايا .
59 - أسطورة رونيل السوداء .
60 - أسطورة المتحف الأسود .
61 - أسطورة الشرء .
62 - أسطورة صندوق بندورا .
63 - أسطورة المحركين .
64 - أسطورتهم .
65 - أسطورة العلامات الدامية .
66 - أسطورة الرجال الذين لم يعودوا كذلك !
67 - أسطورة بيت الأشباح .
68 - أسطورة أرض الظلام .
69 - أسطورة نادى الغيلان .
70 - الحلقات المفسية .

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفــاس
من فرط الغموض والإثارة



د. أحمد خالد توفيق

15 / 1 / 008

قصتان

هاتان قصتان من الطراز المعروف :

القصة الأولى عن القادم ليلاً الذى يقول : " أنت لى .. " ثم يتوارى فى الظلال .. أنت تعرف هذا النمط من القصص . القصة الثانية تتحدث عن مصاصة الدماء التى علمت النساء كيف يتمردن على أزواجهن .. ربما إلى درجة الافتراس . السؤال المهم هنا هو : لماذا قصتان ؟ .. وما الذى يجعل هاتين القصتين تستحقان الانضمام إلى سلسلة الأعداد الخاصة ؟ . . الإجابة تنتظرك بالداخل ، فقط لو كففت عن تضييع وقتك فى قراءة الغلاف الأخير لكل كتاب تجده ..

الثمن فى مصر 400
وما يعادلـه بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

المؤسســة العربيــة الحديثــة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

مطابع